الفصل الرابع

أسبقية القوة البرية

The Primacy of Land Power

تنتج القوة في السياسة الدولية بالدرجة الأولى عن القوات العسكرية التي تمتلكها الدولة. وتستطيع القوى العظمى عموما أن تمتلك أنواعا مختلفة من القوات المقاتلة، ويؤثر مقدار ما تقتنيه الدولة من كل نوع بشدة على توازن القوة. يحلل هذا الفصل الأنواع الأربعة للقوة العسكرية التي تختار الدول من بينها، وهي القوة البحرية المستقلة والسلاح الجوي الاستراتيجي والقوة البرية والأسلحة النووية، بغرض تحديد طريقة المقارنة بينها وتقييمها والخلوص إلى مقياس مفيد للقوة.

سأحاول في المناقشة التالية أن أبرهن على نقطتين أساسيتين. أولا، أن القوة البرية هي الشكل المهيمن للقوة العسكرية في العالم الحديث، حيث تكمن قوة الدولة بالدرجة الأولى في جيشها وقواتها الجوية والبحرية التي توفر الإسناد للقوات البرية. وبإيجاز، فإن الدول الأقوى هي تلك التي تمتلك جيوشا أقوى[1]. وعلى ذلك فإن قياس توازن القوة البرية يقدم في ذاته مؤشرا أوليا سليما للقوة النسبية للقوى العظمى المتنافسة.

---

(١) تذكر أن مصطلح "الجيش" في الدول الناطقة باللغة الإنجليزية يشير إلى القوات البرية فقط [المترجم].

obeikandl.com

ثانيا، تحدّ المساحات المائية الكبيرة من قدرة القوات البرية على إظهار القوة. فحينما يكون على الجيوش المتحاربة أن تعبر مساحات مائية واسعة، كالمحيط الأطلنطي أو القنال الإنجليزي مثلا، لمهاجمة إحداها الأخرى، لا تتوفر لدى أي من الجيشين قدرة هجومية كبيرة ضد منافسه، بغض النظر عن حجم الجيش المعادي ونوعيته. وتكتسب القوة المانعة للمياه أهمية كبيرة لأنها تشكل جانبا أساسيا للقوة البرية، ولأن لها نتائج مهمة على مفهوم الهيمنة. وتحديدا يؤدي وجود المحيطات على معظم سطح الكرة الأرضية إلى استحالة أن تحقق أية دولة الهيمنة العالمية. فلا تستطيع أقوى دولة في العالم نفسها أن تغزو مناطق بعيدة لا يمكن الوصول إليها إلا بالبحر. ولذلك لا تطمح القوى العظمى إلا للسيطرة على المنطقة التي تقع فيها، وربما أيضا منطقة مجاورة يمكن الوصول إليها برا.

ثمة سجال عمره أطول من قرن بين المخططين الاستراتيجيين حول نوع القوة العسكرية التي تحسم نتيجة الحروب. ومن المعروف أن الأدميرال الأمريكي ألفريد تاير ماهان Alfred Thayer Mahan أكد الأهمية الفائقة للقوة البحرية المستقلة في كتابه "تأثير القوة البحرية في التاريخ ١٦٦٠-١٧٨٣" وكتاباته الأخرى[١]. ولاحقا دافع الجنرال الإيطالي جوليو دوهيت Giulio Douhet عن أسبقية السلاح الجوي الاستراتيجي في كتابه "السيطرة على الجو" (١٩٢١)[٢]. ولا تزال أعمال هذين الرجلين تُقرأ على نطاق واسع في كليات الأركان حول العالم. لكنني أدفع هنا بأن الرأيين كليهما خاطئان؛ لأن القوة البرية هي الآلة العسكرية الحاسمة. فالحروب تربحها الكتائب الجرارة، وليس الأساطيل الجوية أو البحرية. والقوة الأعتى هي الدولة ذات الجيش الأقوى.

obeikandl.com

قد يدفع البعض بأن الأسلحة النووية تقلل من أهمية القوة البرية كثيرا، إما بجعل حروب القوى العظمى أمرا من الماضي أو بجعل التوازن النووي المكون الأساسي للقوة العسكرية في العالم التنافسي. ولا شك في أن حروب القوى العظمى أصبحت أقل احتمالا في العالم النووي، لكن القوى العظمى لا تزال تتنافس على الأمن، حتى تحت المظلة النووية، وبحدة أحيانا، وتظل الحرب بينها أمرا واردا. وقد دخلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تنافسا أمنيا متواصلا لخمسة وأربعين عاما، رغم وجود الأسلحة النووية على الجانبين كليهما. علاوة على أنه فيما عدا السيناريو غير المحتمل الذي تحقق فيه قوة عظمى واحدة تفوقا نوويا، لا يهم التوازن النووي كثيرا في تحديد القوة النسبية. فحتى في العالم النووي تظل الجيوش والقوات الجوية والبحرية التي تسندها المقوم الرئيس للقوة العسكرية.

تكشف أنماط التحالفات التي تشكلت في أثناء الحرب الباردة أدلة على أن القوة البرية هي المكون الرئيس للقوة العسكرية. ففي عالم تهيمن عليه قوتان عظميان نتوقع أن تتكاتف الدول الرئيسة الأخرى مع القوة العظمى الأضعف لاحتواء الدولة الأقوى. لكن على خلاف ذلك كانت الولايات المتحدة طوال الحرب الباردة أغنى كثيرا من الاتحاد السوفيتي وتتفوق عليه بميزة كبيرة في القوات البحرية والقاذفات الاستراتيجية والرؤوس النووية، ومع ذلك نظرت فرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا واليابان والمملكة المتحدة، وحتى الصين، إلى الاتحاد السوفيتي بوصفه الدولة الأقوى في النظام، وليس الولايات المتحدة. فقد تحالفت تلك الدول مع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي لأنها كانت تخشى الجيش السوفيتي، وليس الجيش الأمريكي[٣]. كما أن الخوف من التهديد الروسي قد تلاشى اليوم، مع أن روسيا تمتلك آلاف الأسلحة النووية، لأن الجيش الروسي ضعيف وغير مؤهل لهجوم بري كبير. ولو تعافى الجيش الروسي

وأصبح مجددا قوة مقاتلة مهولة، ستعاود الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون القلق من تهديد روسي جديد.

يضم هذا الفصل ثمانية أقسام. تقارن الأقسام الأربعة الأولى بين الأنواع المختلفة للقوة العسكرية التقليدية، بهدف توضيح أسبقية القوة البرية على القوة البحرية المستقلة والقوة الجوية الاستراتيجية. فيعرض القسم الأول هذه الأنواع المختلفة للقوة العسكرية بالتفصيل ويشرح الأسباب التي تجعل القوة البرية الأداة الرئيسة للفوز بالحروب. ويناقش القسمان التاليان المهمات المختلفة للقوات البحرية والقوات الجوية، ثم يقدم أدلة على تأثير القوات البحرية المستقلة والقوات الجوية على نتائج حروب القوى العظمى. ويفحص القسم الرابع دور القوة البرية في التاريخ العسكري الحديث.

ويحلل القسم الخامس كيف تكبح المساحات المائية الواسعة قدرات الجيوش على إظهار القوة، وبذلك تغيّر توازن القوة البرية بدرجة كبيرة، ويناقش القسم السادس تأثير الأسلحة النووية على القوة العسكرية، ويعرض القسم السابع طرق قياس القوة البرية، تليه خاتمة موجزة تعرض بعض مضامين ما تقدم على الاستقرار الدولي.

الغزو في مقابل الإكراه على الاستسلام

تتركز القوة البرية في الجيوش، لكنها توجد أيضا في القوات الجوية والبحرية التي تسند الجيوش. فالقوات البحرية تنقل الجيوش عبر المساحات المائية الواسعة، وتحاول أحيانا أن تنشر القوات البرية على الشواطئ المعادية. وتقوم القوات الجوية هي الأخرى بنقل الجيوش، ولعل الأهم من ذلك أنها تساعد الجيوش بتوصيل القوة النارية من السماء. هذه المهمات الجوية والبحرية تقدم مساعدة مباشرة للجيش، لكنها لا تتصرف باستقلالية عنه. ولذلك تندرج هذه المهمات تحت مسمى القوة البرية.

تحتل الجيوش أهمية كبرى في الحرب؛ لأنها الآلة العسكرية الرئيسة لغزو الأراضي والسيطرة عليها، وذلك هو الهدف السياسي الأسمى في عالم الدول الإقليمية. أما القوات البحرية والجوية فهي غير مهيأة لغزو الأراضي[٤]. وقد عبَّر المخطِط البحري الاستراتيجي البريطاني الشهير جوليان كوربيت Julian Corbett بطريقة جيدة عن العلاقة بين الجيوش والقوات البحرية بالقول: "نظرا لأن الناس يعيشون على الأرض، وليس على البحر، فإن المسائل الكبرى بين الأمم المتحاربة، باستثناءات نادرة، تُحسَم دائما بما يستطيع جيشك أن يفعله ضد أراضي عدوك وحياته الوطنية، أو بالخوف مما يستطيع الأسطول أن يقدمه لجيشك للتقدم"[٥]. ينطبق منطق كوربيت على القوة الجوية والقوة البحرية.

بيد أن القوات البحرية والقوات الجوية لا تعمل كقوة معاونة لقوة الجيش وحسب، إذ يستطيع كل منها أن يُظهِر وحده القوة ضد الدول المعادية، كما يؤكد كثير من المتحمسين للقوات البحرية والجوية. فالقوات البحرية، على سبيل المثال، تستطيع أن تتجاهل ما يحدث على ساحة المعركة وتحاصر العدو، بينما تستطيع القوات الجوية أن تطير فوق ساحة المعركة وتقصف أرض العدو. ويستهدف كل من الحصار والقصف الاستراتيجي إحداث النصر بإكراه الخصم على الاستسلام قبل أن يُهزَم جيشه على ساحة المعركة. وتحديدا يتمثل الهدف في جعل الخصم يستسلم إما بتدمير اقتصاده، وبالتالي تقويض قدرته على مواصلة الحرب، أو بإنزال عقاب جماعي بسكانه المدنيين.

ورغم ادعاءات دوهيت وماهان، فإن القوة البحرية المستقلة والقوة الجوية الاستراتيجية لا تفيدان كثيرا في حسم الحروب الكبرى. فلا تستطيع أي من تلك الآلتين الإكراهيتين وحدها أن تربح حروب القوى العظمى. والقوة البرية وحدها تستطيع أن تربح حربا كبرى، لسبب رئيس، ناقشناه آنفا، وهو أنه من الصعب إكراه قوة عظمى

على الاستسلام بدونها. ومن الصعب تحديدا تدمير اقتصاد العدو بمحاصرته أو قصفه فقط. فضلا عن أن القادة والشعوب في الدول الحديثة لا يستسلمون حتى بعد امتصاص كميات ضخمة من العقاب. ورغم أن الأساطيل المحاصِرة والقاذفات الاستراتيجية لا تستطيع أن تنتج نصرا وحدها، فإنها تساعد الجيوش أحيانا في تحقيق النصر بالقضاء على اقتصاد الخصم وآلته العسكرية. لكن حتى في إطار هذه القدرة المحدودة، لا تلعب القوات الجوية والبحرية عادة إلا دورا مساعدا.

وترجع الغلبة للقوة البرية على الأنواع الأخرى من القوة العسكرية إلى سبب آخر، وهو أن الجيوش وحدها تستطيع أن تلحق هزيمة سريعة بالخصم. في حين لا تستطيع الأساطيل المحاصِرة والقصف الاستراتيجي، كما أوردنا قبل قليل، أن تنتج انتصارات سريعة وحاسمة في حروب القوى العظمى، إذ تقتصر جدواهما بالدرجة الأولى على حروب الاستنزاف الطويلة. لكن الدول نادرا ما تدخل حربا إلا إذا كانت تعتقد أن النجاح السريع ممكن. بل إن توقع النزاع الطويل يكون عادة رادعا ممتازا للحرب[٦]. لذلك يكون جيش القوة العظمى هو أداتها الرئيسة لبدء العدوان، بمعنى أن قدرة الدولة الهجومية تكمن بالدرجة الأولى في جيشها.

سنتناول الآن بمزيد من التفصيل المهمات المختلفة التي تؤديها القوات البحرية والقوات الجوية في زمن الحرب، مع التركيز على تأثير الحصار وحملات القصف الاستراتيجي على نتائج نزاعات القوى العظمى في الماضي.

حدود القوة البحرية المستقلة

إن الأسطول العازم على إظهار القوة ضد دولة معادية ينبغي أولا أن يسيطر على البحر، وتلك هي المهمة الأساسية للقوات البحرية[٧]. وتعني السيطرة على البحر التحكم في خطوط الاتصال التي تمر عبر أسطح المحيطات، بحيث تستطيع السفن

التجارية والعسكرية للدولة أن تتحرك عبرها في أمان. ولكي يسيطر الأسطول على المحيط لا يلزمه أن يسيطر على كل المياه طوال الوقت، بل يجب أن يكون قادرا على السيطرة على الأجزاء المهمة استراتيجيا متى أراد أن يستخدمها، وأن يحرم العدو من القدرة على عمل الشيء نفسه[٨]. ويمكن تحقيق السيطرة على البحر بتدمير القوات البحرية المعادية في المعركة، أو بمحاصرتها في موانئها، أو بمنعها من الوصول إلى الممرات البحرية المهمة.

والأسطول الذي يسيطر على المحيطات ربما يتمتع بحرية التنقل في الممرات المائية، لكن يظل عليه أن يجد طريقة لإظهار القوة ضد أراضي الخصم، فالسيطرة على البحر وحدها لا تقدم تلك القدرة. وتستطيع القوات البحرية أن تؤدي ثلاثا من مهمات إظهار القوة power projection وهي تقدم إسنادا مباشرا للجيش، وليس وهي تعمل باستقلالية.

الهجوم البرمائي: يحدث الهجوم البرمائي حين ينقل الأسطول جيشا عبر مساحة مائية واسعة وينزله على أرض تسيطر عليها قوة عظمى معادية[٩]. وهنا تواجه القوات المهاجمة مقاومة مسلحة، إما حين تصل إلى مناطق الإنزال أو بعدها بقليل. ويتمثل هدفها في الاشتباك مع الجيوش المدافِعة الرئيسة وهزيمتها وغزو بعض الأراضي، إن لم يكن الأراضي كلها. وغزو الحلفاء لنورماندي في السادس من يونيو ١٩٤٤ مثال للهجوم البرمائي.

الإنزال البرمائي: يحدث الإنزال البرمائي، على خلاف ما سبق، حينما لا تواجه القوات المنقولة بحرا مقاومة تذكر عند نزولها على أرض العدو ويكون باستطاعتها أن تقيم رأس جسر ساحلي وتتحرك على الأرض قبل الاشتباك مع قوات العدو[١٠]. وإدخال القوات البريطانية إلى البرتغال الواقعة تحت السيطرة الفرنسية في أثناء الحروب

النابليونية، التي سنناقشها فيما يلي، تعد مثالا للإنزال البرمائي، وكذلك إنزال وحدات الجيش الألماني في النرويج في ربيع ١٩٤٠.

نقل القوات: يتضمن نقل القوات بالأسطول نقل القوات البرية عبر المحيط وإنزالها على أرض خاضعة لسيطرة قوات صديقة، حيث تستطيع هناك أن تدخل في معركة ضد جيش العدو. والأسطول هنا يكون بمثابة عَبَّارات أو ناقلات. وقد أدى الأسطول الأمريكي هذه المهمة في الحرب العالمية الأولى حين نقل القوات من الولايات المتحدة إلى فرنسا، ومرة ثانية في الحرب العالمية الثانية حين نقل القوات من الولايات المتحدة إلى المملكة المتحدة. سأتناول هذه الأنواع المختلفة من العمليات البرمائية لاحقا عند مناقشة الطرق التي تحدّ بها المياه من القوة الضاربة للجيوش. ويكفي هنا القول بأن غزو أراضٍ تدافع عنها قوة عظمى منافسة من البحر يكون عادة مهمة مروعة. في حين يكون نقل القوات مهمة أسهل كثيرا[١١].

ثمة طريقتان لاستخدام القوات البحرية وحدها لإظهار القوة ضد دولة أخرى. في الطريقة الأولى، وهي القصف البحري، تقصف مدن العدو أو أهداف عسكرية مختارة تكون عادة على ساحل العدو بقوة نارية متواصلة من المدافع أو القذائف المحمولة على السفن والغواصات أو بطائرات تنطلق من حاملات، بهدف إكراه الخصم على الاستسلام إما بمعاقبة مدنه وسكانه أو بتغيير التوازن العسكري ضده. لكن هذه الاستراتيجية ليست مؤثرة، لأن القصف البحري بين أنواع الحروب لا يزيد عن وخزة الدبوس، ولا تؤثر كثيرا على الدولة المستهدفة.

ومع أن القوات البحرية ظلت تقصف موانئ العدو طوال عصر الشراع (١٥٠٠-١٨٥٠)، فإنها لم تستطع أن توصل قوة نارية كافية إلى تلك الأهداف، ما جعلها لا تزيد عن مصدر للإزعاج[١٢]، ناهيك عن أن مدى نيران البحرية لم يكن يصل إلى

الأهداف الواقعة بعيدا عن الساحل. وقد أوجز الأدميرال البريطاني الشهير هوراشيو نيلسون Horatio Nelson عدم جدوى القصف البحري بالسفن الشراعية حين قال "من الحماقة أن تحارب السفينة حصنا"[١٣]. لكن دخول القوات البحرية عصر الصناعة بعد عام ١٨٥٠ زاد كثيرا من كمية القوة النارية التي تستطيع القوات البحرية أن تطلقها وأيضا مدى القذف. لكن التصنيع أثر بدرجة أكبر على قدرة القوات البرية على العثور على القوات البحرية وإغراقها، كما سيرد لاحقا. ولذلك كانت القوات البحرية السطحية في القرن العشرين تظل بعيدا عن سواحل العدو في زمن الحرب"[١٤]. والأهم من ذلك أنه إذا حاولت قوة عظمى أن تجبر خصما على الاستسلام بحملة قصف تقليدية، فلا بد أن تستخدم قواتها الجوية لذلك الغرض، وليس قواتها البحرية.

دفع المنظِّران البحريان الكبيران للأزمنة الحديثة كوربيت وماهان بأن الحصار هو الاستراتيجية البحرية الممتازة للفوز في حروب القوى العظمى. يعمل الحصار الذي يسميه ماهان "العلامة الأكيدة والمرعبة على القوة البحرية" على خنق اقتصاد الدولة المنافسة[١٥]. فهدف الحصار هو قطع تجارة الخصم الخارجية، بمعنى حرمانه من الواردات التي تأتيه بحرا ومنعه من تصدير سلعه ومواده إلى العالم الخارجي.

وعند قطع التجارة المنقولة بحرا، توجد طريقتان يستطيع الحصار من خلالهما أن يجبر القوة العظمى المنافسة على الاستسلام. أولا، يستطيع أن ينزل عقابا قاسيا بالسكان المدنيين، وذلك بالدرجة الأولى بقطع الواردات الغذائية وجعل الحياة بائسة، إن لم تكن مميتة للمواطنين العاديين. وإذا نجح الحصار في جعل أناس كثيرين يعانون ويموتون، فسوف يتبخر الدعم الشعبي للحرب، ما يدفع الناس إلى التمرد على حكومتهم أو إكراهها على إيقاف الحرب خوفا من الثورة. ثانيا، يستطيع الحصار أن يضعف اقتصاد العدو لدرجة لا يستطيع معها أن يواصل القتال. وأفضل طريقة لذلك

تتمثل في قطع واردات مهمة مثل النفط. على أن القوات البحرية المحاصِرة لا تميز عادة بين هاتين المقاربتين، فتحاول أن تقطع أكبر قدر ممكن من تجارة الخصم الخارجية، على أمل أن تنجح إحدى المقاربتين. لكن بغض النظر عن ذلك، لا يؤدي الحصار إلى انتصارات سريعة وحاسمة، لأن الأمر يستغرق وقتا طويلا لكي يدمر الأسطول اقتصاد الخصم.

تنفذ الدول الحصار عادة بالقوات البحرية لمنع التجارة الخارجية من الوصول إلى الدولة المستهدفة. على سبيل المثال اعتمدت المملكة المتحدة تاريخيا على أسطولها السطحي لحصار خصوم مثل فرنسا النابليونية وألمانيا الفيلهلمية. ويمكن أيضا استخدام الغواصات لقطع تجارة العدو الخارجية، كما حاولت ألمانيا أن تفعل مع المملكة المتحدة في الحربين العالميتين، والولايات المتحدة مع اليابان في الحرب العالمية الثانية. واستخدم الأمريكيون أيضا السفن السطحية والطائرات المنطلقة من الأرض والألغام لحصار اليابان. لكن القوات البحرية لا تكون ضرورية دائما لتنفيذ الحصار. فالدولة التي تهيمن على القارة وتسيطر على موانئها الرئيسة تستطيع أن توقف التجارة بين الدول الواقعة على تلك القارة والدول الواقعة في أماكن أخرى، بمعنى حصار الدول الخارجية. مثال ذلك نظام القارة الأوروبية النابليوني (١٨٠٦-١٨١٣) الذي استهدف المملكة المتحدة.

تاريخ الحصار

توجد ثمان حالات في العصر الحديث حاولت فيها إحدى القوى العظمى أن تجبر قوة عظمى أخرى على الاستسلام من خلال الحصار في زمن الحرب: (١) حصار فرنسا للمملكة المتحدة في أثناء الحروب النابليونية، (٢) حصار المملكة المتحدة لفرنسا، (٣) حصار فرنسا لبروسيا في عام ١٨٧٠، (٤) حصار ألمانيا للمملكة المتحدة، (٥) حصار المملكة المتحدة والولايات المتحدة لألمانيا والنمسا-المجر في الحرب العالمية الأولى، (٦) حصار ألمانيا للمملكة المتحدة، (٧) حصار المملكة المتحدة

والولايات المتحدة لألمانيا وإيطاليا في الحرب العالمية الثانية، (٨) حصار الولايات المتحدة لليابان في الحرب العالمية الثانية. ويمكن اعتبار حصار أنصار الاتحاد لأنصار الكونفدرالية في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥) مثالا تاسعا، ومع أن أحدا من الطرفين لم يكن قوة عظمى بالمعنى الفني، فسوف أعتبره إحدى هذه الحالات[١٦].

يستلزم تقييم هذه الحالات وضع سؤالين في الاعتبار دائما. أولا، هل ثمة أدلة على أن الحصار وحده يستطيع أن يجبر العدو على الاستسلام؟ ثانيا، هل يمكن للحصار أن يسهم جديا في انتصار الجيوش البرية؟ وهل تأثير الحصار على النتيجة النهائية للحروب حاسم، أي يساوي تقريبا تأثير القوة البرية، أم هامشي؟

لقد تضرر الاقتصاد البريطاني بالتأكيد من النظام الذي فرضه نابليون على القارة الأوروبية، لكن المملكة المتحدة صمدت في الحرب وخرجت منتصرة في النهاية[١٧]. ولم يقترب الحصار البريطاني لفرنسا النابليونية من تدمير الاقتصاد الفرنسي الذي لم يكن من النوع الذي يتأثر بالحصار[١٨]. ولا يدفع الدارسون الجادون بأن الحصار البريطاني لعب دورا رئيسا في سقوط نابليون. ولم يكن لحصار فرنسا لبروسيا في عام ١٨٧٠ أي تأثير على الاقتصاد البروسي، أو حتى على الجيش البروسي الذي ربح نصرا حاسما على الجيش الفرنسي[١٩]. ومع أن حملة الغواصات الألمانية ضد السفن البريطانية في الحرب العالمية الأولى أوشكت على إخراج المملكة المتحدة من الحرب في عام ١٩١٧، فقد فشل الحصار في النهاية ولعب الجيش البريطاني الدور الرئيس في هزيمة ألمانيا الفيلهلمية في عام ١٩١٨[٢٠]. وفي هذا النزاع نفسه فرضت القوات البحرية البريطانية والأمريكية حصارا على ألمانيا والنمسا-المجر دمر بشدة اقتصاد هاتين الدولتين وسبب معاناة شديدة بين سكانهما المدنيين[٢١]. لكن ألمانيا لم تستسلم إلا بعد أن تحطمت

obeikandl.com

جيوش القيصر- التي لم تتأثر جديا بالحصار- في القتال على الجبهة الغربية في صيف ١٩١٨. وبالمثل لم يكن ثمة مفر من هزيمة النمسا-المجر على ساحات المعارك.

وفي الحرب العالمية الثانية شن هتلر حملة غواصات أخرى على المملكة المتحدة، لكنها فشلت هي الأخرى في تدمير الاقتصاد البريطاني وإخراج المملكة المتحدة من الحرب[٢٢]. وبالمثل لم يؤثر الحصار الإنجليزي-الأمريكي لألمانيا النازية في النزاع نفسه تأثيرا كبيرا على الاقتصاد الألماني الذي لم يكن من النوع الذي يتأثر بالحصار[٢٣]. ولم يلحق حصار الحلفاء ضررا كبيرا باقتصاد إيطاليا، ولم تكن له علاقة بالتأكيد بقرار إيطاليا بالخروج من الحرب في منتصف عام ١٩٤٣. وفيما يتعلق بالحرب الأهلية الأمريكية، فإن اقتصاد أنصار الكونفدرالية تضرر بسبب حصار أنصار الاتحاد، لكنه لم ينهار، ولم يستسلم الجنرال روبرت لي Robert E. Lee إلا بعد أن هُزِمت جيوشه في المعركة، ولم تهزم جيوش لي في المعركة؛ لأنها كانت تعاني من النقص المادي الناجم عن الحصار[٢٤].

يمثل الحصار الأمريكي لليابان في الحرب العالمية الثانية الحالة الوحيدة التي دمر الحصار فيها اقتصاد الخصم وألحق أضرارا بالغة بقواته العسكرية، وهو أيضا الحالة الوحيدة للإكراه الناجح على الاستسلام بين الحالات التسع، حيث استسلمت اليابان قبل أن يهزم جيشها الشعبي المكون من مليون جندي على أرض المعركة[٢٥]. لقد لعب الحصار بالتأكيد دورا أساسيا في تركيع اليابان، لكن ذلك حدث بالتزامن مع جهود القوات البرية التي لعبت دورا لا يقل أهمية في تحقيق النصر. ولذلك يستحق قرار اليابان بالاستسلام غير المشروط في أغسطس ١٩٤٥ نظرة عن كثب، لأنه حالة خلافية، ولأن له مضامين مهمة على تحليل كفاءة القوة الجوية الاستراتيجية والحصار[٢٦].

من الطرق الجيدة لتناول الأسباب التي دفعت اليابان للاستسلام أن نميز بين ما حدث قبل أغسطس ١٩٤٥ وما حدث في الأسبوعين الأولين من ذلك الشهر الحاسم. بنهاية شهر يوليو ١٩٤٥ كانت اليابان أمة مهزومة، وكان قادتها يسلمون بتلك الحقيقة. وكانت المسألة الوحيدة المعلقة هي إذا ما كانت اليابان تستطيع أن تتجنب الاستسلام غير المشروط الذي طالبت به الولايات المتحدة. فقد كانت الهزيمة حتمية؛ لأن توازن القوة البرية تغير بشكل حاسم ضد اليابان في الأعوام الثلاثة السابقة. وكان جيش اليابان وقواته الجوية والبحرية المساندة على حافة الانهيار بسبب الحصار الأمريكي المدمر وبسبب إنهاكه في قتال مطول على جبهتين. كانت اليابسة الآسيوية هي جبهة اليابان الغربية، وقد تورطت جيوشها هناك في حرب مكلفة مع الصين منذ عام ١٩٣٧. وكانت جبهة اليابان الشرقية هي الإمبراطورية اليابانية المكونة من جزر غرب المحيط الهادي، حيث كانت الولايات المتحدة عدوها الرئيس هناك. وقد تمكنت القوات البرية الأمريكية، بإسناد جوي وبحري شامل بالتأكيد، من هزيمة معظم القوات اليابانية والاستيلاء على تلك الجزر، وكانت تستعد لغزو اليابان نفسها في خريف ١٩٤٥.

وبنهاية شهر يوليو ١٩٤٥ كانت القوات الجوية الأمريكية تحرق مدن اليابان الرئيسة منذ خمسة أشهر تقريبا وألحقت دمارا هائلا بالسكان المدنيين. لكن هذه الحملة العقابية لم تجعل الشعب الياباني يضغط على حكومته لإيقاف الحرب، ولم تدفع القادة اليابانيين للتفكير جديا في الاستسلام. وبدلا من ذلك، كانت اليابان تعاني؛ لأن جيشها دمره الحصار وأعوام من القتال البري المنهك. ومع ذلك رفضت اليابان أن تستسلم بدون شروط.

لماذا واصلت اليابان الصمود؟ ليس لأن قادتها اعتقدوا أن جيشهم المنهك يستطيع أن يحبط الغزو الأمريكي لليابان، حيث كانوا يدركون أن الولايات المتحدة

تمتلك قوة عسكرية قادرة على غزو الجزر اليابانية ذاتها. وبالأحرى، رفض صناع السياسة اليابانيون قبول الاستسلام غير المشروط لأنهم اعتقدوا أنه يمكن التفاوض على نهاية للحرب تحفظ لليابان سيادتها. وكان المفتاح إلى النجاح يتمثل في إشعار الولايات المتحدة بأنها يجب أن تدفع ثمنا فادحا لغزو اليابان، حيث اعتقدوا أن تهديد النصر المكلف يجعل الولايات المتحدة أكثر مرونة على الجبهة الدبلوماسية. فضلا عن أن القادة اليابانيين كانوا يأملون في أن الاتحاد السوفيتي الذي ظل بعيدا عن حرب المحيط الهادي حتى ذلك الوقت يمكن أن يتوسط في محادثات سلام ويساعد في الخروج باتفاق يخلو من الاستسلام غير المشروط.

وأخيرا، وقع حدثان في أوائل أغسطس ١٩٤٥ أزعجا القادة اليابانيين وحملاهم على قبول الاستسلام غير المشروط. جاءت التفجيرات الذرية لهيروشيما (في السادس من أغسطس) ونجازاكي (في التاسع من أغسطس) وشبح هجمات نووية أخرى لتحمل بعض الأفراد المؤثرين، منهم الامبراطور هيروهيتو، على الدفع في اتجاه وقف الحرب فورا. وجاءت القشة الأخيرة مع القرار السوفيتي بالانضمام إلى الحرب على اليابان في الثامن من أغسطس ١٩٤٥ والهجوم السوفيتي على جيش كوانتونج Kwantung في منشوريا في اليوم التالي. قوض هذا التطور أية إمكانية لاستخدام الاتحاد السوفيتي للتفاوض على اتفاق سلام، وكذلك وضع اليابان في حالة حرب مع كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. علاوة على أن الانهيار السريع لجيش كوانتونج أمام الجيش الأحمر أشعر اليابانيين بأن الجيش الداخلي يمكن أن يسقط بسرعة وبسهولة أكبر أمام قوات الغزو الأمريكية. بإيجاز تبددت استراتيجية اليابان للحصول على استسلام مشروط في اليوم التاسع من شهر أغسطس ١٩٤٥، وهو ما كان معروفا

على نطاق واسع داخل صفوف الجيش الياباني، خاصة القوات البرية التي كانت العقبة الرئيسة أمام الخروج من الحرب.

تكشف الأدلة المستمدة من حالات الحصار السابقة عن استنتاجين حول جدوى الحصار في الفوز بالحروب. أولا، لا يستطيع الحصار وحده أن يجبر عدوا على الاستسلام. وتتأكد عدم جدوى استراتيجية الحصار في أن الدول المحاربة لم تجربها أبدا. كما يبيِّن السجل التاريخي أن الحصار مصحوبا باستخدام القوات البرية نادرا ما يحقق نتائج إكراهية، ما يكشف العجز العام للحصار عن إكراه الدول المعادية على الاستسلام. وفي حالات الحصار التسع السابقة، ربحت الدولة المحاصِرة خمس مرات وخسرت أربعا. وفي أربعة من الانتصارات الخمسة لم يحدث إكراه على الاستسلام، حيث كان على المنتصر أن يقهر جيش الدولة الأخرى. وفي الحالة الناجحة الوحيدة للإكراه على الاستسلام كان الحصار البحري الأمريكي لليابان مسئولا جزئيا وحسب عن نتيجة الحرب، حيث أسهمت القوات البرية بنفس القدر الذي أسهم به الحصار.

ثانيا، لا يسهم الحصار بدرجة كبيرة في إضعاف جيوش العدو، ولذلك لا يسهم في نجاح الحملة البرية إلا نادرا. وأفضل ما يمكن أن يقال عن الحصار إنه يساعد القوات البرية أحيانا في كسب الحروب الطويلة بإضعاف اقتصاد الخصم. ويعد حصار اليابان الحالة الوحيدة التي أسهم فيها الحصار بالقدر نفسه الذي أسهمت به القوات البرية في النصر في حروب القوى العظمى.

لماذا يفشل الحصار

ثمة عوامل كثيرة تفسر التأثير المحدود للحصار في حروب القوى العظمى. فقد يفشل الحصار؛ لأن القوات البحرية مقيدة بالبحر ولا تستطيع أن تقطع خطوط الاتصال البحرية للخصم. فقد أحبطت القوات البحرية البريطانية والأمريكية الحصار الألماني في الحربين العالميتين بمنعها للغواصات الألمانية من الاقتراب بما يكفي من سفن

التحالف لإطلاق طوربيداتها. كما أن الحصار يضعف أحيانا على مدار الحروب الطويلة بسبب التسريب أو المساعدة من الدول المحايدة. مثال ذلك أن نظام القارة الأوروبية تآكل بمرور الوقت؛ لأن نابليون لم يتمكن من القطع الكامل للتجارة البريطانية مع القارة الأوروبية.

وحتى حين ينجح الحصار في قطع كامل تجارة الدولة المنقولة بحرا يكون تأثيره محدودا عادة لأحد سببين، أولهما أن القوى العظمى لا تعدم الوسائل المطلوبة لضرب الحصار، مثل إعادة تدوير المواد والتخزين واستخدام البدائل. من ذلك أن المملكة المتحدة كانت تعتمد بشدة على الغذاء المستورد قبل الحربين العالميتين، ولذلك استهدف الحصار الألماني في النزاعين تجويع البريطانيين حتى الاستسلام، فتعاملت المملكة المتحدة مع هذا التهديد لبقائها بإحداث زيادة كبيرة في إنتاجها للمواد الغذائية[٢٧]. وحينما قُطِعت على ألمانيا إمدادات المطاط في الحرب العالمية الثانية، طورت ألمانيا بديلا تركيبيا[٢٨]. كما يمكن للقوى العظمى أن تلجأ إلى غزو دول مجاورة واستغلالها، خاصة منذ مجيء السكك الحديدية. ومثال ذلك ألمانيا النازية التي استغلت القارة الأوروبية حتى النخاع في الحرب العالمية الثانية، ما قلل كثيرا من تأثير حصار الحلفاء.

تتميز الدول البيروقراطية الحديثة بمهارة خاصة في تكييف اقتصاداتها وترشيدها لمواجهة الحصار في زمن الحرب. يبيِّن مانكور أولسون Mancur Olson هذه النقطة في كتابه "اقتصاد النقص في زمن الحرب" الذي يعقد مقارنة بين حالات الحصار على المملكة المتحدة في الحروب النابليونية والحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية[٢٩]. ويقول في ذلك إن "بريطانيا تعرضت لأكبر نقص في المؤن الغذائية في الحرب العالمية الثانية، ونقص أقل منه في الحرب العالمية الأولى، ونقص أقل من الاثنين في الحروب

النابليونية". فقد كانت المملكة المتحدة أكثر اعتمادا على الواردات الغذائية في القرن العشرين منها في الفترة النابليونية، ما يدفعنا إلى توقع أن يكون "قدر المعاناة الناتج عن نقص الغذاء" أكبر في الحرب العالمية الثانية منه في زمن نابليون.

بيد أن أولسون يجد أن العكس هو الصحيح، حيث كانت المعاناة الناتجة عن نقص الغذاء في الفترة النابليونية "أكبر كثيرا منها في الحربين العالميتين". ويفسر هذه النتيجة غير المتوقعة بأن القدرات الإدارية للدولة البريطانية تحسنت بدرجة كبيرة بمرور الزمن، ولذلك كانت قدرتها على إعادة تنظيم اقتصادها في زمن الحرب وتخفيف تأثيرات الحصار "في أقل درجاتها في الفترة النابليونية، وأعلى قليلا في الحرب العالمية الأولى، وأعلى كثيرا في الحرب العالمية الثانية".

ثانيا، يستطيع سكان الدول الحديثة أن يمتصوا قدرا كبيرا من الألم دون أن يثوروا على حكوماتهم[٣٠]. ولا توجد حالة واحدة في السجل التاريخي أدى فيها الحصار أو حملة القصف الاستراتيجي التي تستهدف معاقبة شعب الدولة المعادية إلى احتجاجات عامة واسعة ضد حكومة العدو. بل يبدو أن "العقاب يولد غضبا شعبيا على الدولة المهاجمة أكبر منه على الحكومة المستهدفة"[٣١]. وتقدم اليابان في الحرب العالمية الثانية مثالا على ذلك. فقد دمر الحصار الأمريكي اقتصادها وتعرضت لحملة قصف استراتيجي دمرت مناطق واسعة من مدنها وقتلت مئات الآلاف من المدنيين. ومع ذلك صبر الشعب الياباني وصمد أمام العقاب المدمر الذي أنزلته الولايات المتحدة بهم ولم يضغطوا، ولو قليلا، على حكومتهم لكي تستسلم[٣٢].

وأخيرا، فإن النخب الحاكمة نادرا ما تتوقف عن الحرب بسبب ما يتعرض له شعبها من مآسٍ. بل يمكن الدفع، على خلاف ذلك، أنه كلما زاد العقاب الذي ينزله العدو بالسكان، يصعُب على القادة أن يتركوا الحرب. يتمثل الأساس وراء هذا

الادعاء الذي يبدو مناقضا للحدس، في أن الهزيمة القاسية تدفع الشعب بعد انتهاء الحرب إلى محاولة الانتقام من القادة الذين ساقوهم إلى الهلاك. ولذلك يكون لدى أولئك القادة عادة دافع قوي إلى تجاهل المآسي التي يعانيها الشعب ومواصلة القتال حتى النهاية على أمل أن يحققوا انتصارا وينجوا بأنفسهم[٣٣].

حدود القوات الجوية الاستراتيجية

ثمة تشابهات كبيرة بين توظيف الدولة لقواتها الجوية وقواتها البحرية في الحرب. فكما يتحتم على القوات البحرية أن تسيطر على البحر قبل أن تتمكن من إظهار القوة ضد الدول المعادية، يتحتم على القوات الجوية أيضا أن تسيطر على الجو أو تحقق ما يسمى "التفوق الجوي" قبل أن تتمكن من قصف قوات العدو على الأرض أو مهاجمة مدنه. أما إذا كانت القوات الجوية لا تسيطر على السماء، فسيكون من الوارد أن تتكبد قواتها المهاجمة خسائر كبيرة، ما يجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، عليها أن تظهر القوة ضد العدو.

نفذت القاذفات الأمريكية، على سبيل المثال، غارات واسعة النطاق على مدينتي ريجنزبيرج Regensburg وشفاينفورت Schweinfurt الألمانيتين في أغسطس وأكتوبر ١٩٤٣ بدون سيطرة جوية على ذلك الجزء من ألمانيا. ونتيجة لذلك تكبدت القاذفات المهاجمة خسائر ضخمة، أجبرت الولايات المتحدة على وقف الهجمات إلى أن توفرت الطائرات المرافقة المقاتلة بعيدة المدى في أوائل عام ١٩٤٤[٣٤]. وفي الأيام الأولى من حرب يوم الغفران في أكتوبر ١٩٧٣ حاولت القوات الجوية الإسرائيلية أن تقدم الدعم الذي كانت القوات البرية الإسرائيلية المحاصَرة على طول قناة السويس وعلى مرتفعات الجولان في أمس الحاجة إليه، لكن أجبرتها النيران المهلكة الصادرة من

obeikandi.com

صواريخ أرض–جو المصرية والسورية ومدافع الدفاع الجوي على تقليص تلك المهمة[٣٥].

والقوات الجوية حين تسيطر على الجو، تستطيع أن تنفذ ثلاثا من مهمات إظهار القوة لمساندة وحدات الجيش التي تحارب على الأرض. يتمثل الدور الأول في المساندة الجوية عن قرب، وفيه تطير القوات الجوية فوق ساحة المعركة وتقدم مساندة تكتيكية مباشرة للقوات البرية الصديقة التي تعمل تحتها، ويكون هدف القوات الجوية الرئيس هو تدمير قوات العدو من الجو، كما لو كانت "مدفعية طائرة". وتتطلب هذه المهمة تنسيقا قويا بين القوات الجوية والبرية. وتتمثل المهمة الثانية في قطع خطوط تموين العدو بقذف المنطقة الخلفية لجيش العدو، وذلك بالدرجة الأولى لتدمير حركة مؤن العدو وقواته إلى الخط الأمامي أو تأخيرها. وقد تتضمن قائمة الأهداف هنا مستودعات المؤن ووحدات الاحتياط والمدفعية بعيدة المدى وخطوط الاتصال التي تعبر منطقة العدو الخلفية وتصل إلى خطوطه الأمامية. وتتمثل المهمة الثالثة للقوات الجوية في توفير جسر جوي لنقل القوات والمؤن إلى مسرح القتال أو داخله. وتزيد هذه المهمات بالطبع قوة الجيش.

وتستطيع القوات الجوية أيضا أن تظهر القوة ضد الخصم وحدها من خلال القصف الاستراتيجي الذي تقوم فيه القوات الجوية بالضرب المباشر لبلاد العدو بغض النظر عن مجريات الأحداث على ساحة المعركة[٣٦]. تقوي هذه المهمة الادعاء بأن القوات الجوية تستطيع وحدها أن تربح الحرب. ليس غريبا– إذن– أن نجد المتحمسين للقوات الجوية يروِّجون للقصف الاستراتيجي الذي لا يختلف في تأثيره عن مكافئه البحري، وهو الحصار[٣٧]. فالهدف من كل من القصف الاستراتيجي والحصار هو إكراه العدو على الاستسلام، إما بإنزال عقاب جماعي بسكانه المدنيين أو بتدمير

اقتصاده، ما يشل قواته المقاتلة في النهاية. ويفضل أنصار الاستهداف الاقتصادي أحيانا ضرب القاعدة الصناعية للعدو كاملة وتدميرها كليا، فيما يؤيد آخرون اقتصار الضربات على واحد أو أكثر من "المكونات الحرجة" كالنفط أو محطات الطاقة أو الآلات أو الصلب أو شبكات النقل، أي تلك المواقع غير المنيعة من اقتصاد العدو[٣٨]. وإجمالا فإن حملات القصف الاستراتيجي، كما هي الحال مع الحصار، لا ينتظر منها أن تنتج انتصارات سريعة وسهلة.

وقد دفع بعض أنصار القوات الجوية، خلال العقد الماضي، بأن القصف الاستراتيجي يمكن أن يؤمن النصر بقطع رأس القيادة السياسية للعدو[٣٩]، وتحديدا استخدام القاذفات لقتل القادة السياسيين للدولة المعادية أو عزلهم عن شعبهم بمهاجمة وسائل الاتصال الخاصة بالقيادة والقوات الأمنية التي تمكّنها من السيطرة على الشعب، على أمل أن تقوم العناصر المعتدلة في معسكر الخصم بالانقلاب على القيادة والتوصل إلى سلام. ويدعي مؤيدو فكرة قطع الرأس أيضا أنه يمكن عزل القيادة السياسية عن قواتها العسكرية، ما يصعّب عليها قيادة هذه القوات والسيطرة عليها.

ثمة نقطتان أخريان لا بد من ذكرهما حول القوات الجوية المستقلة قبل التحول إلى السجل التاريخي. أولا، لم يشكل القصف الاستراتيجي الخالي من الهجمات النووية على بلاد العدو نوعا مهما من القوة العسكرية منذ عام ١٩٤٥، وليس من المتوقع أن تتغير هذه الحالة في المستقبل المنظور. ومع تطوير الأسلحة النووية في نهاية الحرب العالمية الثانية ابتعدت القوى العظمى عن تهديد مدن بعضها البعض بالقاذفات ذات التسليح التقليدي، واعتمدت بدلا من ذلك على الأسلحة النووية لإنجاز تلك المهمة. ففي الحرب الباردة، على سبيل المثال، لم تخطط الولايات المتحدة ولا الاتحاد السوفيتي لشن حملة قصف استراتيجي من إحداهما على الأخرى في حالة اندلاع حرب قوى

عظمى بينهما. بل وضعت الدولتان خططا شاملة لاستخدام ترساناتهما النووية لضرب أراضي الدولة الأخرى.

لكن القصف الاستراتيجي القديم لم يختف تماما، حيث ظلت القوى العظمى تستخدمه ضد القوى الصغرى، كما فعل الاتحاد السوفيتي ضد أفغانستان في ثمانينات القرن العشرين، والولايات المتحدة ضد العراق ويوغوسلافيا في تسعينات القرن العشرين[٤٠]. لكن القدرة على قصف دول صغيرة ضعيفة لا يُعوَّل عليها كثيرا عند تقييم توازن القوة العسكرية بين القوى العظمى، فما يُعوَّل عليه بقوة هو الآلات العسكرية التي تنوي إحدى القوى العظمى أن تستخدمها ضد الأخرى والتي لم تعد تتضمن القصف الاستراتيجي. وينطبق تحليلي للقوات الجوية المستقلة بالدرجة الأولى على الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٥، وليس الماضي القريب أو الحاضر أو المستقبل.

يتضمن السجل التاريخي أربع عشرة حالة قصف استراتيجي، خمس منها تضمنت قصف قوى عظمى لقوى عظمى أخرى، وتسع حالات تضمنت قصف قوى عظمى لقوى صغرى. وتقدم حملات القصف بين القوى العظمى المتخاصمة الأدلة الأهم لتحديد طرق تقييم توازن القوة العسكرية بين القوى العظمى. وقد تناولتُ الحالات التي تتضمن قوى صغرى؛ لأن البعض قد يعتقدون أنها- خاصة الحملات الجوية الأمريكية على العراق ويوغوسلافيا- تقدم أدلة على أن القوى العظمى يمكن أن تستخدم قواتها الجوية لإكراه قوة عظمى أخرى على الاستسلام. سنثبت فيما يلي أن ذلك ليس صحيحا.

تاريخ القصف الاستراتيجي

تتمثل الحالات الخمس التي حاولت فيها قوة عظمى أن تجبر قوة عظمى منافسة على الاستسلام باستخدام القصف الاستراتيجي في الحرب العالمية الأولى حينما (١)

قصفت ألمانيا المدن البريطانية، وفي الحرب العالمية الثانية حينما (٢) قصفت ألمانيا المدن البريطانية للمرة الثانية، (٣) قصفت المملكة المتحدة والولايات المتحدة ألمانيا، (٤) قصفت المملكة المتحدة والولايات المتحدة إيطاليا، (٥) قصفت الولايات المتحدة اليابان.

وتتضمن الحالات التسع التي حاولت فيها قوة عظمى أن تجبر قوى صغرى على الاستسلام باستخدام القوات الجوية الاستراتيجية: (١) قصف إيطاليا لإثيوبيا في عام ١٩٣٦، (٢) قصف اليابان للصين من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٤٥، (٣) قصف الاتحاد السوفيتي لفنلندا في الحرب العالمية الثانية، (٤) قصف الولايات المتحدة لكوريا الشمالية في أوائل الخمسينات، (٥) ولفيتنام الشمالية في منتصف الستينات، (٦) ولفيتنام الشمالية مرة ثانية في عام ١٩٧٢، (٧) قصف الاتحاد السوفيتي لأفغانستان في الثمانينات، (٨) قصف الولايات المتحدة وحلفائها للعراق في عام ١٩٩١، (٩) وليوغوسلافيا في عام ١٩٩٩.

سنقيِّم هذه الحالات الأربع عشرة من منظور السؤالين ذاتهما اللذين وجها التحليل السابق للحصار: أولا هل ثمة أدلة على أن القصف الاستراتيجي وحده يمكن أن يجبر العدو على الاستسلام؟ ثانيا، هل بإمكان القوات الجوية الاستراتيجية أن تسهم بقوة في انتصار الجيوش البرية؟ وهل يكون تأثير القصف الاستراتيجي على النتيجة النهائية للحروب حاسما كتأثير القوات البرية أم يكون هامشيا؟

قصف القوى العظمى

فشلت الهجمات الجوية الألمانية ضد المدن البريطانية في الحربين العالميتين الأولى والثانية في إكراه المملكة المتحدة على الاستسلام، بل وخسرت ألمانيا الحربين[41]. كما لا توجد أدلة على أن حملات القصف دمرت القدرة العسكرية البريطانية جديا. ولذلك فإذا كانت هناك حجة مقنعة حول التأثير الحاسم للقصف الاستراتيجي، فإنها تعتمد

بالدرجة الأولى على قصف الحلفاء لما يسمى دول المحور- ألمانيا وإيطاليا واليابان- في الحرب العالمية الثانية.

من الأسباب الوجيهة التي تدعو للشك في ادعاءات أن القصف كان الأهم في حسم نتائج هذه النزاعات الثلاثة أن القصف الجدي للدولة المستهدفة لم يبدأ في الحالات الثلاث إلا بعد أن تأكد أن كلا منها كانت في طريقها إلى الهزيمة. فألمانيا، على سبيل المثال، دخلت الحرب على المملكة المتحدة في سبتمبر ١٩٣٩، وعلى الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٤١، واستسلمت في مايو ١٩٤٥، مع أنه كان واضحا بنهاية عام ١٩٤٢، إن لم يكن قبل ذلك، أن ألمانيا ستخسر الحرب. كان آخر هجوم كبير للفيرماخت على الجيش الأحمر في كورسيك في صيف ١٩٤٣، وقد مني بفشل ذريع. وبعد جدل طويل قرر الحلفاء أخيرا في مؤتمر الدار البيضاء في يناير ١٩٤٣ أن يشنوا حملة قصف استراتيجي شديدة على ألمانيا. لكن الهجوم الجوي لم يبدأ سريعا، ولم تبدأ القاذفات في قصف الرايخ الثالث إلا في ربيع عام ١٩٤٤، حينما حقق الحلفاء أخيرا التفوق الجوي على ألمانيا. وحتى المؤرخ ريتشارد أوفري الذي يعتقد أن القوات الجوية لعبت دورا أساسيا في الفوز بالحرب على ألمانيا، يعترف بأن "حملة القصف لم تبلغ ذروتها إلا في العام الأخير من الحرب"[٤٢].

دخلت إيطاليا الحرب على المملكة المتحدة في يونيو ١٩٤٠، وعلى الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٤١. لكن على خلاف ألمانيا، خرجت إيطاليا من الحرب في سبتمبر ١٩٤٣ قبل أن تُغزى أراضيها. بدأت حملة القصف الجدية على إيطاليا في يوليو ١٩٤٣، قبل شهرين تقريبا من استسلام إيطاليا. لكن إيطاليا حينها كانت على حافة هزيمة مأساوية، حيث كان جيشها قد دُمِر تماما ولم يعد باستطاعته الدفاع عن

الأراضي الإيطالية ضد الغزو[٤٣]، وكان الفيرماخت هو الذي يدافع عن إيطاليا حين غزا الحلفاء صقلية من البحر في يوليو ١٩٤٣.

بدأت حرب اليابان مع الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٤١ وانتهت في أغسطس ١٩٤٥. وبدأ القصف الجدي لليابان من الجو في مارس ١٩٤٥، قبل حوالي خمسة أشهر من استسلام اليابان، وكان من الواضح حينها أن اليابان خسرت الحرب وعلى شفا استسلام غير مشروط. فقد دمرت الولايات المتحدة إمبراطورية اليابان في المحيط الهادي، وقضت على ما بقي من الأسطول الياباني في معركة خليج ليت Leyte في أكتوبر ١٩٤٤. فضلا عن أن الحصار البحري الأمريكي كان قد دمر الاقتصاد الياباني بحلول شهر مارس ١٩٤٥، ما ألحق أضرارا بالغة بالجيش الياباني الذي كان جزء كبير منه متورطا في حرب يستحيل الفوز فيها مع الصين.

أصبحت حملات القصف الاستراتيجي ممكنة فقط في أواخر الحرب، حين ضعفت دول المحور كثيرا وكانت في طريقها إلى الهزيمة، وإلا لما كانت هذه الدول أهدافا سهلة للهجوم الجوي. فلم يكن بمقدور الولايات المتحدة، على سبيل المثال، أن تنفذ حملة قصف كبرى على اليابان إلا بعد أن دمرت معظم القوات الجوية والبحرية اليابانية واقتربت من الجزر اليابانية نفسها، حينها فقط اقتربت القاذفات الأمريكية بما يكفي من تنفيذ هجمات على اليابان بدون ردع. ولم يكن بمقدور الولايات المتحدة أيضا أن تستخدم قاذفاتها الاستراتيجية بفعالية ضد ألمانيا إلا بعد أن حققت التفوق الجوي على الرايخ الثالث، وهي المهمة الصعبة التي استغرقت وقتا طويلا، ولم تكن لتنجح لو لم تحول ألمانيا موارد ضخمة لحربها مع الجيش الأحمر.

وأقصى ما يمكن أن يقال حول حملات القصف الاستراتيجي من جانب دول الحلفاء الثلاث إنها ساعدت في القضاء على خصوم كانوا بالفعل في طريقهم إلى

الهزيمة. لكن ذلك لا يدعم الادعاء بأن القوات الجوية المستقلة كانت سلاحا حاسما في الحرب العالمية الثانية. لكن يمكن الدفع بأن هذه الحملات الجوية الاستراتيجية ساعدت في تسريع إنهاء الحرب، وأنها ساعدت الحلفاء في الحصول على شروط أفضل مما كان ممكنا دون هذه الحملات. فباستثناء الحالة الإيطالية، توضح الأدلة أن تأثير القصف الاستراتيجي كان ضعيفا على طريقة حسم هذه النزاعات. فيما يلي سنبحث هذه الحالات بمزيد من التفصيل.

لقد حاول الحلفاء أن يجبروا ألمانيا على الاستسلام بعقاب سكانها المدنيين وتدمير اقتصادها. وقد أدت حملة العقاب الذي أنزلها الحلفاء بالمدن الألمانية التي ضمت "عمليات الإحراق" سيئة السمعة لهامبورغ ودريزدين إلى تدمير أكثر من ٤٠٪ من المنطقة الحضرية في أكبر سبعين مدينة ألمانية وقتل حوالي ٣٠٥٠٠٠ مدني[٤٤]. لكن الشعب الألماني امتص العقاب كأنه قدر مقدر، ولم يشعر هتلر بوخز ضمير يدفعه للاستسلام[٤٥]. ولا شك في أن الضربات الجوية من جانب دول الحلفاء، جنبا إلى جنب مع تقدم القوات البرية، دمرت القاعدة الصناعية الألمانية في أوائل عام ١٩٤٥[٤٦]. لكن الحرب كانت قد انتهت تقريبا حينذاك، والأهم من ذلك أن تدمير الصناعة الألمانية كان كافيا لإكراه هتلر علي وقف الحرب. وفي النهاية كان على الجيوش السوفيتية والبريطانية والأمريكية أن تغزو ألمانيا[٤٧].

كانت حملة القصف الاستراتيجي على إيطاليا متواضعة إلى أقصى حد مقارنة بسيل القصف الذي تعرضت له ألمانيا واليابان[٤٨]. صحيح أن الحلفاء ضربوا بعض الأهداف الاقتصادية، لكنهم لم يحاولوا أن يدمروا القاعدة الصناعية الإيطالية. لقد أراد الحلفاء أيضا أن يوجعوا شعب إيطاليا، لكنهم قتلوا في الفترة من أكتوبر ١٩٤٢ حتى أغسطس ١٩٤٣ حوالي ٣٧٠٠ إيطالي، وهو عدد صغير جدا مقارنة

بالـ٣٠٥٠٠٠ ألماني الذين قُتِلوا بين مارس ١٩٤٢ وأبريل ١٩٤٥، والـ٩٠٠٠٠٠ ياباني الذين قُتِلوا بين مارس وأغسطس ١٩٤٥ بالقصف الجوي. بدأت حملة القصف، رغم دمويتها المحدودة، تهز النخبة الحاكمة الإيطالية في صيف ١٩٤٣ (حين اشتدت) وزادت الضغط عليها للاستسلام بأسرع ما يمكن. لكن السبب الرئيس الذي جعل إيطاليا في حاجة شديدة لترك الحرب في ذلك الوقت، وهو ما فعلته أخيرا في الثامن من سبتمبر ١٩٤٣، هو أن الجيش الإيطالي كان قد تمزق ولم يعد قادرا على إيقاف غزو الحلفاء لبلاده[٤٩]. خلاصة القول إن إيطاليا كانت في طريقها إلى الهزيمة قبل أن تبدأ حملة القصف في إحداث تأثيرها. ولذلك فإن أفضل ما يمكن أن يقال عن هجوم الحلفاء الجوي على إيطاليا هو أنه ربما أجبر إيطاليا على الخروج من الحرب قبل شهر أو شهرين من خروجها من الحرب بدونه.

حين بدأت حملة القصف الأمريكية لليابان في أواخر عام ١٩٤٤، كان الهدف الأولي يتمثل في استخدام القنابل شديدة الانفجار لتدمير اقتصاد اليابان الذي كان الحصار البحري الأمريكي قد دمره فعلا[٥٠]. وسرعان ما تأكد أن هذه الاستراتيجية الجوية لن تلحق أضرارا بالغة بالقاعدة الصناعية لليابان. ولذلك قررت الولايات المتحدة في مارس ١٩٤٥ أن تعاقب سكان اليابان المدنيين بحرق مدنهم[٥١]. وأدت هذه الحملة الجوية الفتاكة التي استمرت حتى نهاية الحرب بعد خمسة أشهر إلى تدمير أكثر من ٤٠٪ من أكبر مدن اليابان الـ٦٤، وقتلت حوالي ٧٨٥٠٠٠ مدني، وأجبرت حوالي ٨,٥ مليون شخص على إخلاء بيوتهم[٥٢]. ورغم أن اليابان استسلمت في أغسطس ١٩٤٥ قبل أن تغزوها الولايات المتحدة وتحتل أراضيها، فقد لعبت حملة الإحراق دورا صغيرا في إقناع اليابان بالخروج من الحرب، ما يجعل منها حالة ناجحة في الإكراه على الاستسلام. في حين كان الحصار والقوات البرية، كما تأكد قبل ذلك،

هما المسئولان بالدرجة الأولى عن النتيجة، مع أن التفجيرات الذرية وإعلان السوفييت الحرب على اليابان (اللذين حدثا معا في أوائل أغسطس) أفقدا اليابان توازنها.

وعلى ذلك، فقد فشل الإكراه على الاستسلام في ثلاث من الحالات الخمس التي كانت الدولة المستهدَفة فيها قوة عظمى، وهي الهجمات الجوية الألمانية على المملكة المتحدة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وحملة القصف التي نفذها الحلفاء على ألمانيا النازية. فضلا عن أن القصف الاستراتيجي لم يلعب دورا رئيسا في انتصار الحلفاء على الفيرماخت. ورغم أن إيطاليا واليابان أُجبرتا على الاستسلام في الحرب العالمية الثانية، فقد نتج هذان النجاحان بالدرجة الأولى عن عوامل أخرى غير القوات الجوية المستقلة. سنتناول فيما يلي ما حدث في الماضي حين أطلقت القوى العظمى قاذفاتها على قوى صغرى.

قصف القوى الصغرى

رغم فارق القوة الكبير في الحالات التسع التي قامت فيها قاذفات القوى العظمى الاستراتيجية بقصف قوى صغرى، فلم يحدث الإكراه على الاستسلام في خمس حالات منها. قصفت إيطاليا المدن والقرى الإثيوبية في عام ١٩٣٦، وأحيانا باستخدام غازات سامة[٥٣]، لكن إثيوبيا رفضت الاستسلام، ما أجبر الجيش الإيطالي على غزو البلاد. وقصفت اليابان المدن الصينية بين عامي ١٩٣٧ و١٩٤٥ وقتلت أعدادا كبيرة من المدنيين الصينيين[٥٤]، لكن الصين لم تستسلم وفي النهاية أوقعت الولايات المتحدة باليابان هزيمة ساحقة. ونفذت الولايات المتحدة حملة "الرعد القاصف" الشهيرة على فيتنام الشمالية من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٦٨، بهدف إكراه الفيتناميين الشماليين على التوقف عن إشعال الحرب في فيتنام الجنوبية والقبول بوجود فيتنام الجنوبية المستقلة[٥٥]، لكنها فشلت واستمرت الحرب.

وشن الاتحاد السوفيتي حملة قصف للمراكز السكانية بأفغانستان بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٩ لإكراه الثوار الأفغان على إيقاف حربهم على حكومة كابول المدعومة من السوفييت[٥٦]، لكن السوفييت، وليس الثوار، هم مَنْ خرجوا من الحرب في النهاية. وأخيرا، شنت الولايات المتحدة في أوائل ١٩٩١ هجوما جويا استراتيجيا على العراق لإكراه صدام حسين على الانسحاب من الكويت التي احتلها جيشه في أغسطس ١٩٩٠[٥٧]، لكن حملة القصف فشلت في إكراه صدام حسين، واضطرت الولايات المتحدة وحلفاؤها في النهاية لاستخدام القوات البرية لإنجاز مهمتهم. وتستحق هذه الحملة وقفة تأمل؛ لأن الولايات المتحدة استخدمت استراتيجية قطع الرأس، حيث حاولت أن تقتل صدام من الجو وأن تعزله عن سكانه وقواته العسكرية في الكويت. لكنها فشلت من جميع النواحي[٥٨].

لقد نجح الإكراه في أربع حالات تضمنت قوى صغرى، لكن يبدو أن القصف الاستراتيجي لعب دورا هامشيا في بلوغ تلك الغاية في هذه الحالات جميعها، ما عد واحدة. فحين غزا الاتحاد السوفيتي فنلندا في الثلاثين من نوفمبر ١٩٣٩، شن القائد السوفيتي جوزيف ستالين حملة قصف متواضعة على المدن الفنلندية، قتلت حوالي ٦٥٠ مدنيا[٥٩]. لم تسهم حملة القصف كثيرا، بحسب الروايات جميعها، في قرار فنلندا بإيقاف الحرب في مارس ١٩٤٠ قبل أن يهزمها الجيش الأحمر ويغزوها. فقد خرجت فنلندا من الحرب؛ لأنها أدركت أن جيشها ضعيف ولن يتمكن في أي حال من الفوز بالحرب.

وقد حاولت الولايات المتحدة في الحرب الكورية أن تجبر كوريا الشمالية على ترك الحرب بمعاقبتها من الجو[٦٠] عبر ثلاث حملات منفصلة. فركزت القاذفات الأمريكية، من أواخر يوليو ١٩٥٠ حتى أواخر أكتوبر ١٩٥٠، على قصف المراكز

الصناعية الخمسة الرئيسة بكوريا الشمالية. واستهدفت بين مايو وسبتمبر ١٩٥٢ عددا من المحطات الكهرومائية الكورية الشمالية، فضلا عن العاصمة الكورية الشمالية بيونج يانج. وضربت القاذفات الأمريكية السدود الكورية الشمالية بين مايو ويونيو ١٩٥٣ بهدف تدمير محصول الأرز وتجويع كوريا الشمالية حتى الاستسلام.

ونظرا لأن الهدنة التي أنهت الحرب لم توقع إلا في السابع والعشرين من يوليو ١٩٥٣، فمؤكد أن حملتي العقاب الأوليين لم تضعا نهاية للحرب. وتؤكد الأدلة المتوفرة أن هاتين الحملتين لم تؤثرا على سلوك كوريا الشمالية بأية درجة. ورغم أن حملة تدمير محصول الأرز سبقت توقيع الهدنة مباشرة، فإن قصف السدود لم يدمر المحصول ولم يدفع كوريا الشمالية إلى حافة المجاعة. وإنما أجبرت كوريا الشمالية أخيرا على توقيع الهدنة بسبب التهديدات النووية من الرئيس دوايت آيزنهاور وبسبب إدراك أن الطرفين لم يكونا يجمعان بين القوة والإرادة الضروريتين لتغيير الوضع على الأرض. معنى ذلك بإيجاز أن العقاب الجوي التقليدي لم يتسبب في هذا الإكراه الناجح.

وإضافة إلى حملة "الرعد القاصف" الفاشلة على فيتنام الشمالية (١٩٦٥-١٩٦٨)، شنت الولايات المتحدة عليها أيضا حملة القصف "الخطوط الخلفية" Linebacker في عام ١٩٧٢"[٦١]. وفي النهاية وقعت فيتنام الشمالية في أوائل عام ١٩٧٣ اتفاقا لوقف إطلاق النار سمح للولايات المتحدة بالانسحاب من الحرب وأخَّر الهجوم البري الفيتنامي الشمالي على جنوب فيتنام. ورغم أننا هنا أمام حالة إكراه ناجح نظريا، إلا أن الاتفاقية لم تؤد إلا إلى تأخير النصر النهائي لفيتنام الشمالية على فيتنام الجنوبية إلى عام ١٩٧٥. ولم يلعب القصف الاستراتيجي دورا كبيرا في دفع فيتنام الشمالية إلى قبول وقف إطلاق النار مع الولايات المتحدة.

لم توقع القاذفات الأمريكية، على خلاف الفهم الشعبي في ذلك الوقت، عقابا مزلزلا بالسكان المدنيين بفيتنام الشمالية. فلم تقتل الحملة الجوية لعام ١٩٧٢ إلا حوالي ثلاثة عشر ألف فيتنامي شمالي، وهو عقاب لم يكن من شأنه أبدا أن يدفع عدوا مصمما مثل فيتنام الشمالية إلى الاستسلام للمطالب الأمريكية[٦٢]. وكان السبب الرئيس الذي دفع فيتنام الشمالية لوقف إطلاق النار في يناير ١٩٧٣ هو أن القوات الجوية الأمريكية أحبطت هجوما بريا فيتناميا شماليا في ربيع ١٩٧٢، ما أوجد دافعا قويا لدى فيتنام الشمالية لتسهيل انسحاب سريع لكل القوات الأمريكية من فيتنام قبل تنفيذ هجوم آخر. وهذا هو ما فعله توقيع وقف إطلاق النار، حيث حققت فيتنام الشمالية بعد عامين نصرا عسكريا كاملا على فيتنام الجنوبية التي خاضت آخر معاركها بدون مساعدة القوات الجوية الأمريكية.

ربما تبدو الحرب الأخيرة التي نفذتها منظمة حلف شمال الأطلنطي (الناتو) على يوغوسلافيا للوهلة الأولى الحالة الأكيدة التي أدت فيها القوات الجوية الاستراتيجية وحدها إلى إكراه الخصم على الاستسلام[٦٣]. بدأت الولايات المتحدة وحلفاؤها قصف يوغوسلافيا في الرابع والعشرين من مارس ١٩٩٩ بهدف إكراه الرئيس اليوغسلافي سلوبودان ميلوسوفيتش على التوقف عن قمع السكان الألبان في منطقة كوسوفو والسماح بدخول قوات الحلف إلى تلك المنطقة. استمرت الحملة الجوية سبعين يوما، واستسلم ميلوسوفيتش لمطالب الحلف في الثامن من يونيو ١٩٩٩. لم يشن الحلف هجوما بريا على كوسوفو، رغم أن جيش تحرير كوسوفو الثائر كان يناوش القوات البرية اليوغوسلافية على مدار الحملة.

ولا تتوفر أدلة كثيرة حول ما دفع ميلوسوفيتش للاستسلام، لكن يبدو جليا أن القصف لم يقترب من تركيع يوغوسلافيا وأن القصف وحده لم يكن المسئول عن

النتيجة[٦٤]. وكانت حملة القصف محدودة النطاق في بادئ الأمر، لأن قادة الحلف كانوا يعتقدون أن ميلوسوفيتش سيستسلم بعد أيام قليلة من بدء عقاب خفيف من الجو. ورغم أن الحلف كثَّف الحرب الجوية حين ثبت فشل هذه المقاربة إلا أنه لم تكن عنده الإرادة السياسية لإنزال عقاب موجع بيوغوسلافيا. ولذلك كانت قاذفات الحلف تقطع مسافات طويلة لكي تتجنب قتل المدنيين اليوغوسلافيين وهي تضرب عددا محدودا من الأهداف الاقتصادية والسياسية في يوغوسلافيا. ولذلك لم تقتل حملة القصف إلا حوالي خمسمائة مدني[٦٥]. ليس غريبا لذلك ألا توجد أدلة على أن ميلوسوفيتش استسلم بسبب ضغط من شعبه لإنهاء معاناتهم.

يبدو أن ثمة عوامل مختلفة تفسر قرار ميلوسوفيتش بالاستسلام لمطالب حلف شمال الأطلنطي، ربما كان التهديد بمزيد من العقاب الجوي واحدا منها، فضلا عن عاملين آخرين لم يكونا أقل أهمية. أولا بدأ الحلف في التحضير لهجوم بري واسع على يوغوسلافيا، حيث أرسلت إدارة الرئيس كلنتون في أواخر شهر مايو رسالة إلى ميلوسوفيتش عن طريق الروس مؤداها أن الحلف سيرسل قوات برية قريبا إلى كوسوفو إذا لم يستسلم. والعامل الثاني هو أن روسيا حليف يوغوسلافيا الرئيس الذي عارض الحرب بشدة اصطف بجانب الحلفاء فعليا في أوائل يونيو للضغط على ميلوسوفيتش لإنهاء النزاع فورا. كما خفّف الحلفاء مطالبهم قليلا لتكون التسوية مرضية للقائد اليوغوسلافي. معنى ذلك أن حملة العقاب لم تنتج وحدها النصر على يوغوسلافيا، رغم أنها تبرز كأحد العوامل المهمة.

تدعم الأدلة المستمدة من تلك الحالات الأربع عشرة الاستنتاجات التالية حول جدوى القصف الاستراتيجي. أولا، لا يستطيع القصف الاستراتيجي وحده أن يجبر العدو على الاستسلام. فباستثناء حالة يوغوسلافيا، لم تحاول قوة عظمى (أو تحالف

من القوى العظمى) أبدا أن تربح حربا بالاعتماد على قوتها الجوية فقط، وحتى في تلك الحالة هدد حلف شمال الأطلنطي أخيرا بهجوم بري لإكراه ميلوسوفيتش على الاستسلام. لقد وُظِف القصف الاستراتيجي منذ البداية بالتزامن مع القوات البرية في الحالات الثلاث عشرة الأخرى. يوضح هذا السجل عدم جدوى الاعتماد على القصف الاستراتيجي وحده. كما لا توجد أدلة على أن حملات القصف الماضية أثرت على نتيجة الحرب بدرجة كبيرة تشير إلى أن القصف الاستراتيجي وحده يستطيع أن يرغم قوة عظمى أخرى على الاستسلام. وحتى حين استخدم القصف الاستراتيجي جنبا إلى جنب مع القوات البرية، يبيِّن السجل التاريخي أن القصف الاستراتيجي ربما لعب دورا رئيسا في تشكيل النتيجة مرة واحدة فقط. معنى ذلك أن القصف الاستراتيجي لا يستطيع وحده أن يجبر دولة على الاستسلام.

لاحظ أنه في تسع من الحالات الأربع عشرة ربحت القوة العظمى التي تستخدم القوات الجوية الاستراتيجية الحرب. وفي ثلاث من هذه الحالات التسع لم ينجح المنتصر في إكراه خصمه، بل اضطر لأن يهزمه على الأرض: إيطاليا ضد إثيوبيا والحلفاء ضد ألمانيا النازية والولايات المتحدة ضد العراق. وفي الحالات الست الباقية نجحت القوة العظمى التي تستخدم القوات الجوية الاستراتيجية في إكراه خصمها على الاستسلام. لكن القصف الاستراتيجي، مع ذلك، لم يلعب إلا دورا تابعا في تقرير نتيجة خمس من تلك الحالات الست: الولايات المتحدة ضد اليابان، والاتحاد السوفيتي ضد فنلندا، والحلفاء ضد إيطاليا، والولايات المتحدة ضد كوريا وفيتنام (١٩٧٢). وكانت القوات البرية هي المفتاح إلى النصر في كل حالة، مع أن الحصار أيضا كان مكونا أساسيا للنجاح في الحالة الأمريكية–اليابانية.

وتعد الحرب على كوسوفو الحالة الوحيدة التي يبدو فيها أن القصف الاستراتيجي لعب دورا رئيسا في تحقيق الإكراه الناجح. لكن تلك الحالة لا تَرْقَ لأن تكون سببا للتفاؤل حول جدوى القوات الجوية المستقلة. فقد كانت يوغوسلافيا قوة صغيرة ضعيفة جدا تحارب وحدها الولايات المتحدة الهائلة وحلفاءها الأوروبيين، فضلا عن عوامل أخرى بجانب حملة القصف حملت ميلوسوفيتش على الرضوخ لمطالب حلف شمال الأطلنطي.

يتمثل الدرس الثاني الذي نتعلمه من السجل التاريخي في أن القصف الاستراتيجي نادرا ما يضعف جيش العدو، ولذلك لا يسهم بقوة في نجاح الحملة الأرضية. ففي الحرب العالمية الثانية ساعدت القوات الجوية المستقلة القوى العظمى أحيانا في حسم حروب استنزاف طويلة ضد قوى عظمى منافسة، لكنها لم تلعب غير دور مساعد في تلك الانتصارات. وفي العصر النووي استخدمت القوى العظمى تلك الآلة الإكراهية ضد القوى الصغرى فقط، وليس ضد قوى عظمى أخرى. لكن القصف الاستراتيجي لم يكن أكثر فعالية مع الدول الأضعف منه مع القوى العظمى الأخرى. بإيجاز من غير المرجح أن ينجح القصف في إكراه خصم على الاستسلام.

أسباب فشل حملات القصف الاستراتيجي

إن الأسباب التي تحول دون جدوى القصف الاستراتيجي هي الأسباب عينها التي تجعل الحصار يفشل عادة في إكراه الخصم، وهي أن السكان المدنيين يستطيعون أن يمتصوا ألما وحرمانا هائلين دون أن يثوروا على حكوماتهم. يلخص العالم السياسي روبرت بيب Robert Pape الأدلة التاريخية المتعلقة بالعقاب الجوي والثورة الشعبية بإيجاز مفيد بالقول: "على مدى أكثر من خمسة وسبعين عاما يحفل سجل القوات الجوية بمحاولات لتغيير سلوك الدول بمهاجمة أعداد كبيرة من المدنيين أو التهديد بذلك. والاستنتاج الحاسم من هذه الحملات هو أن الهجوم الجوي لا يحمل المواطنين

على الثورة على حكوماتهم. ... ففي الحملات الجوية الاستراتيجية الكبرى التي تزيد عن ثلاثين حملة منذ إدخال القوات الجوية لم تنجح القوات الجوية في حمل الجماهير على الخروج إلى الشوارع للمطالبة بأي شيء"[٦٦]. علاوة على أن الاقتصادات الصناعية الحديثة ليست أبنية هشة يمكن تدميرها بسهولة، ولو حتى بهجمات جوية هائلة. وبإعادة صياغة كلام آدم سميث نقول إن هناك مجالا لإصلاح الضرر في اقتصادات القوى العظمى. وتكون استراتيجية الاستهداف أقل ضررا على القوى الصغرى بسبب صغر قواعدها الصناعية.

لكن ماذا عن استراتيجية قطع الرأس؟ لقد فشلت هذه الاستراتيجية مع العراق في عام ١٩٩١. كما فشلت في ثلاث مناسبات أخرى لم ترد في المناقشة السابقة؛ لأنها عمليات هجومية محدودة النطاق. ففي الرابع عشر من أبريل ١٩٨٦ قصفت الولايات المتحدة خيمة معمر القذافي، فقتلت الابنة الصغرى للزعيم الليبي فيما نجا القذافي نفسه. وثمة اعتقاد واسع الانتشار بأن التفجير الإرهابي لطائرة بان أمريكان ١٠٣ فوق اسكتلندا بعد عامين كان انتقاما لتلك المحاولة الفاشلة لاغتيال القذافي. وفي الحادي والعشرين من أبريل ١٩٩٦ استهدف الروس قائد القوات الثائرة في إقليم الشيشان جوهر دوداييف وقتلوه، بهدف إكراه الشيشانيين على إنهاء حربهم الانفصالية مع روسيا بشروط ترضي الكرملين. لكن الثوار تعهدوا بالانتقام لموت دوداييف، وبعد أشهر قليلة (في أغسطس ١٩٩٦) أُخرِجت القوات الروسية بالقوة من الشيشان. وأخيرا نفذت الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٩٨ قصفا قصيرا على العراق لمدة أربعة أيام تحت اسم "عملية ثعلب الصحراء" لقتل صدام حسين، لكنها فشلت[٦٧].

إن استراتيجية قطع الرأس غير واقعية بالمرة[٦٨]. فرغم حالة دوداييف، يكون من الصعب جدا في زمن الحرب أن تحدد مكان القائد السياسي للدولة المعادية وأن تقتله.

وحتى إذا نجح فصل الرأس، فمن غير الوارد أن تكون سياسة الوريث مختلفة جوهريا عن سياسة سلفه المقتول. تستند هذه الاستراتيجية إلى الاعتقاد الأمريكي الثابت بأن الدول العدوانية تتكون من مواطنين طيبين يحكمهم قادة أشرار. فكل ما عليك هو أن تقضي على القائد الشرير، وساعتها ستكون الغلبة لقوى الخير وتنتهي الحرب سريعا. لكنها ليست استراتيجية واعدة، ذلك لأن قتل قائد معين لا يضمن ألا يحل أحد مساعديه المقربين محله. فلو نجح الحلفاء– جدلا– في قتل أدولف هتلر، فربما حل محله مارتن بورمان Martin Bormann أو هيرمان جيورنج Hermann Goering، وليس أحدهما أفضل حالا من هتلر. علاوة على أن القادة الأشرار، من نوعية هتلر، يتمتعون عادة بتأييد شعبي واسع، ليس لأنهم يمثلون أحيانا وجهات نظر مجتمعهم وحسب، بل أيضا لأن النزعة القومية تقوي الروابط بين القادة السياسيين وشعوبهم في زمن الحرب، حين يكون الجميع متحدين في وجه تهديد خارجي قوي[٦٩].

كما أن الاستراتيجية التي تحاول عزل القيادة السياسية عن شعبها لا تقل شططا. فثمة قنوات متعددة يستطيع القادة من خلالها أن يتواصلوا مع شعوبهم، ومن المستحيل أن تدمر القوات الجوية هذه القنوات جميعا مرة واحدة وأن تبقيها على تلك الحال لفترة طويلة. فقد تكون القاذفات مثلا مهيأة لتدمير الاتصالات عن بعد، لكنها غير مهيأة لضرب الصحف. كما أنها غير مهيأة أيضا لتدمير الشرطة السرية وأدوات القمع الأخرى. وأخيرا فإن دفع انقلابات عسكرية تأتي بقادة متعاونين في الدول المعادية في زمن الحرب مهمة شبه مستحيلة.

ولا يقل عزل القائد السياسي عن قواته العسكرية صعوبة. فالمفتاح إلى نجاح هذه الاستراتيجية يتمثل في قطع خطوط الاتصال بين ساحات المعارك والقيادة السياسية. لكن ثمة سببين يحكمان على هذه الاستراتيجية بالفشل. أولا، يمتلك القادة قنوات

متعددة للتواصل مع جيوشهم وشعوبهم، ولا تستطيع القاذفات أن تقطعها جميعا في اللحظة ذاتها أو أن تبقيها كذلك لوقت طويل. ثانيا، يستطيع القادة السياسيون القلقون من هذه المشكلة أن يفوضوا السلطة مقدما إلى القادة العسكريين الملائمين في حال انقطعت خطوط الاتصال. على سبيل المثال وضعت القوتان العظميان في أثناء الحرب الباردة خططا للتعامل مع تلك الحالة بسبب خوفهما من الفصل النووي للرأس.

يتضح من السجل التاريخي أن الحصار والقصف الاستراتيجي يؤثران على نتيجة حروب القوى العظمى من حين لآخر، لكنهما لا يلعبان دورا حاسما في تقرير النتيجة النهائية. فالجيوش والقوات الجوية والبحرية التي تساندها هي المسئولة بالدرجة الأولى عن تحديد الطرف الذي يربح حروب القوى العظمى. والقوة البرية هي النوع الأقوى بين القوات العسكرية التقليدية المتاحة للدول[٧٠]. ومن النادر أن تُحسَم حروب القوى العظمى بالدرجة الأولى بغير الجيوش البرية على ساحات المعارك. ورغم أننا عرضنا التاريخ المرتبط بتلك الادعاءات في الأقسام والفصول السابقة، فإن العرض العام الموجز التالي لحروب القوى العظمى منذ عام ١٧٩٢ يوضح أن الحروب تحسم على الأرض.

التأثير المهيمن للجيوش

وقعت عشر حروب بين القوى العظمى خلال القرنين الماضيين، كان ثلاث منها حروبا مركزية تورطت فيها كل القوى العظمى، وهي الحروب الثورية الفرنسية والنابليونية (١٧٩٢-١٨١٥) والحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، وقد تضمنت الأخيرة نزاعات متمايزة في آسيا وأوروبا.

خاضت فرنسا بعد الثورة الفرنسية سلسلة حروب على مدى ثلاثة وعشرين عاما ضد تحالفات مختلفة من القوى العظمى الأوروبية، ضمت النمسا وبروسيا وروسيا

والمملكة المتحدة. وكانت نتيجة الحملات كلها تقريبا تقررها المعارك بين الجيوش المتنافسة، وليس المعارك البحرية. انظر مثلا تأثير معركة ترافالجار Trafalgar البحرية الشهيرة على مسار الحرب. فقد ألحق الأسطول البريطاني هزيمة ساحقة بالأسطول الفرنسي في ذلك الاشتباك في الحادي والعشرين من أكتوبر ١٨٠٥، بعد يوم واحد من فوز نابليون الكبير على النمسا في معركة أولم Ulm. لكن انتصار بريطانيا في البحر لم يؤثر على حظوظ نابليون، حتى أن جيوش نابليون حققت على مدار العامين التاليين أعظم انتصاراتها بهزيمة النمساويين والروس في أوسترلتز Austerlitz (١٨٠٥) والبروسيين في جينا Jena وأورستات Auerstadt (١٨٠٦) والروس في فريدلاند Friedland (١٨٠٧)[٧١].

كما حاصرت المملكة المتحدة القارة الأوروبية، وحاصر نابليون المملكة المتحدة. لكن أحدا من الحصارين لم يؤثر على نتيجة الحرب بدرجة كبيرة. فاضطرت المملكة المتحدة في النهاية لأن ترسل جيشا إلى القارة الأوروبية لقتال جيش نابليون في أسبانيا. فكان الجيش البريطاني، ومن قبله الجيش الروسي هو الذي دمر الجيش الفرنسي في أعماق روسيا في عام ١٨١٢ وأخرج نابليون من المشهد.

كان توازن القوة البرية أيضا المحدد الرئيس للنصر في الحرب العالمية الأولى، وتحديدا تقررت نتيجة الحرب بالمعارك الطويلة والمكلفة على الجبهة الشرقية بين الجيشين الألماني والروسي، وعلى الجبهة الغربية بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء (البريطانية والفرنسية والأمريكية). وحقق الألمان نصرا مذهلا في الشرق في أكتوبر ١٩١٧، حين انهار الجيش الروسي وخرجت روسيا من الحرب. واستنسخ الألمان ذلك العمل العظيم تقريبا على الجبهة الغربية في ربيع ١٩١٨، لكن الجيوش البريطانية والفرنسية والأمريكية تعافت سريعا، وبعدها بقليل تفكك الجيش الألماني، وبذلك انتهت الحرب

في الحادي عشر من نوفمبر ١٩١٨. ولم يلعب القصف الاستراتيجي أي دور في تقرير النتيجة النهائية. صحيح أن الحصار الإنجليزي-الأمريكي لألمانيا أسهم في النصر بالتأكيد، لكنه كان عاملا ثانويا. فقد حسمت "الحرب الكبرى"، كما سميت لاحقا، بالدرجة الأولى ملايين الجنود على الجانبين كليهما، قاتلوا وقُتِلوا في أغلب الأحيان في معارك دامية في أماكن مثل فيردون Verdun وتاننبيرج Tannenberg وباشنديل Passchendaele وسوم Somme.

والمعارك التي خاضتها الجيوش البرية المتنافسة مدعومة بقواتها الجوية والبحرية هي التي قررت نتيجة الحرب العالمية الثانية في أوروبا بالدرجة الأولى. فالقوات البرية النازية كانت المسئولة تحديدا عن الموجة العارمة للانتصارات الألمانية المبكرة: على بولندا في سبتمبر ١٩٣٩، وفرنسا والمملكة المتحدة بين مايو ويونيو ١٩٤٠، وعلى الاتحاد السوفيتي بين يونيو وديسمبر ١٩٤١. لكن المد انقلب على الرايخ الثالث في أوائل عام ١٩٤٢، وبحلول شهر مايو ١٩٤٥ رحل هتلر واستسلم خلفاؤه بدون شروط. لقد تعرض الألمان لضربات موجعة في ساحات المعارك، في المقام الأول على الجبهة الشرقية أمام الجيش الأحمر الذي فقد ثمانية ملايين جندي في الحرب، لكنه استطاع أن يلحق بالألمان ثلاثة على الأقل من كل أربع إصابات في زمن الحرب[٧٢]. وساعد الجيشان البريطاني والأمريكي أيضا في إضعاف الفيرماخت، لكن دورهما كان أصغر كثيرا من دور الجيش السوفيتي، وذلك بالدرجة الأولى لأنهما لم ينزلا على الأراضي الفرنسية حتى يونيو ١٩٤٤، أي قبل أقل من عام من انتهاء الحرب.

لقد فشلت حملة القصف الاستراتيجي التي نفذها الحلفاء في شل الاقتصاد الألماني حتى أوائل عام ١٩٤٥، حين حُسمت نتيجة الحرب على الأرض. فالقوات الجوية وحدها لم تدمر القاعدة الصناعية الألمانية، بل لعبت جيوش الحلفاء التي

أطبقت على الرايخ الثالث الدور الرئيس في ذلك العمل. وفرضت القوات البحرية البريطانية والأمريكية حصارا على الرايخ الثالث، لكن تأثيره هو الآخر كان متواضعا على نتيجة الحرب. بإيجاز تتمثل الطريقة الوحيدة لهزيمة قوة قارية هائلة مثل ألمانيا النازية في تدمير جيشها في معارك برية دامية وغزوها. ربما يساعد الحصار والقصف الاستراتيجي بعض الشيء، لكن تأثيرهما يقتصر بالدرجة الأولى على الأطراف.

يعتقد الأمريكيون أن النصف الآسيوي من الحرب العالمية الثانية بدأ عندما هوجم بيرل هاربر في السابع من ديسمبر ١٩٤١. لكن اليابان كانت دولة عدوانية في آسيا منذ عام ١٩٣١ واحتلت منشوريا ومعظم شمال الصين وأجزاء من الهند الصينية قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب. وقد أسرع الجيش الياباني بعد بيرل هاربر مباشرة إلى غزو معظم جنوب شرق آسيا وكل الجزر تقريبا في النصف الغربي من المحيط الهادي. وكان جيش اليابان هو أداتها الرئيسة للغزو، مع أن أسطولها كان ينقل الجيش غالبا إلى ميادين المعارك. ونفذت اليابان حملة قصف استراتيجي على الصين، لكنها فشلت فشلا ذريعا (كما ورد في موضع سابق من هذا الفصل). وبدأت اليابان أيضا في عام ١٩٣٨ في محاولة عزل الصين عن العالم الخارجي بضرب حصار عليها، قلل تدفق الأسلحة والسلع إلى الصين وبلغ ذروته في عام ١٩٤٢. ورغم ذلك ظلت جيوش الصين صامدة في ساحة المعركة ورفضت الاستسلام للعدو الياباني[٧٣]. كانت القوة البرية- بإيجاز- هي الأساس لنجاحات اليابان العسكرية في الحرب العالمية الثانية.

انقلب المد على اليابان في يونيو ١٩٤٢، حين أحرز الأسطول الأمريكي نصرا مذهلا على الأسطول الياباني في معركة ميدواي midway [منتصف الطريق]. وعلى مدى الأعوام الثلاثة التالية تضعضعت قوة اليابان في حرب مطولة على جبهتين، واستسلمت أخيرا بدون شروط في أغسطس ١٩٤٥. وقد لعبت القوات البرية، كما

تأكد آنفا، دورا كبيرا في هزيمة اليابان. وكان حصار الأسطول الأمريكي لليابان عاملا حاسما في ذلك النزاع. كما أحدث القصف الحارق لليابان بالتأكيد، بما في ذلك هيروشيما ونجازاكي، معاناة كبيرة في المدن المستهدفة، لكنه لعب دورا متواضعا وحسب في هزيمة اليابان. وتعد الحرب العالمية الثانية حرب القوى العظمى الوحيدة في التاريخ الحديث التي لم تكن القوات البرية فيها المسئولة وحدها في المقام الأول عن تقرير النتيجة، والتي لعبت فيها إحدى الأداتين الإكراهيتين– القوات الجوية أو القوات البحرية– دورا أكبر من دور المساعد.

وقعت سبع حروب أخرى بين قوى عظمى خلال القرنين الماضيين: حرب القرم (١٨٥٣–١٨٥٦)، وحرب توحيد إيطاليا (١٨٥٩)، والحرب النمساوية–البروسية (١٨٦٦)، والحرب الفرنسية–البروسية (١٨٧٠–١٨٧١)، والحرب الروسية–اليابانية (١٩٠٤–١٩٠٥)، والحرب الأهلية الروسية (١٩١٨–١٩٢١)، والحرب السوفيتية–اليابانية (١٩٣٩). لم تتضمن أي من تلك الحالات قصفا استراتيجيا، وتضمنت الحرب الروسية–اليابانية وحدها دورا بحريا واضحا، رغم أن أحد الطرفين لم يحاصر الآخر. كان الهدف الرئيس للقوات البحرية المتنافسة هو السيطرة على البحر، وهو هدف استراتيجي مهم؛ لأن الطرف الذي يسيطر على البحر يمتلك ميزة في نقل قواته البرية حول مسرح العمليات[٧٤]. وقد حسمت النزاعات السبعة كافة بين الجيوش المتحاربة على ساحات المعارك.

وأخيرا، فإن نتيجة النزاع المحتمل في أثناء الحرب الباردة كانت ستحسمها في المقام الأول الأحداث على الجبهة الرئيسة التي كان يمكن أن تشتبك فيها جيوش حلف شمال الأطلنطي وجيوش حلف وارسو. مؤكد أن القوات الجوية التكتيكية المساندة لتلك الجيوش كانت ستؤثر على التطورات على الأرض. لكن الحرب كان سيحسمها

بالدرجة الأولى أداء الجيوش المتحاربة على الأرض. ومؤكد أن أحدا من الطرفين لم يكن ليصعِّد حملة قصف استراتيجي ضد الآخر، وذلك بالدرجة الأولى لأن وصول الأسلحة النووية جعل تلك المهمة غير ذات أهمية. فضلا عن أنه لم تكن هناك إمكانية جدية لأن يستخدم الناتو القوة البحرية المستقلة لمصلحته، وذلك بالدرجة الأولى لأن الاتحاد السوفيتي لم يكن يسهل حصاره كما حدث مع اليابان في الحرب العالمية الثانية[٧٥]. وكانت الغواصات السوفيتية ستحاول بالتأكيد أن تقطع خطوط الاتصال البحرية بين الولايات المتحدة وأوروبا، لكنها كانت ستفشل بالتأكيد، كما فشل الألمان في الحربين العالميتين. وكما هي الحال مع فرنسا النابليونية وألمانيا الفيلهلمية وألمانيا النازية، كانت حرب الهيمنة مع الاتحاد السوفيتي ستحسمها الجيوش المتحاربة على الأرض.

القوة المانعة للمياه

ثمة جانب مهم جدا للقوات البرية يستحق المزيد من التأمل، وهو وقوف المساحات المائية الواسعة في وجه قدرة الجيوش على إظهار القوة. لا تشكل المياه عادة عائقا أمام أسطول ينقل قواته البرية عبر المحيط وينزلها في دولة صديقة. في حين تتحول المياه إلى عائق حين يحاول الأسطول توصيل جيش إلى أرض تسيطر عليها وتدافع عنها قوة عظمى معادية. وذلك لأن القوات البحرية تكون ضعيفة جدا حين تنفذ عمليات برمائية ضد قوات قوية متمركزة على البر، حيث تعطي ميزة البر للأخيرة القدرة على إغراق الغزاة المنقولين بحرا. وعموما يكون الهجوم البري عبر حدود مشتركة أسهل في تنفيذه بكثير من الغزو من البحر. والجيوش التي يتحتم عليها أن تعبر مساحات مائية كبيرة لمهاجمة خصم جيد التسليح تكون قدرتها الهجومية محدودة دائما.

لماذا تعيق المياه الجيوش؟

إن المشكلة الأساسية التي تواجهها القوات البحرية حين تنفذ غزوا منقولا بالبحر هي القيود الكبيرة على عدد القوات وكمية القوة النارية التي تستطيع الأساطيل أن تستخدمها في العمليات البرمائية[٧٦]. ولذلك يصعب على الأساطيل أن تنزل على شواطئ العدو قوات هجومية قوية بما يكفي للتغلب على القوات المدافِعة. وتختلف طبيعة تلك المشكلة طبعا من عصر الشراع إلى العصر الصناعي[٧٧].

قبل العقد السادس من القرن التاسع عشر، حين كانت السفن تتحرك بالشراع، كانت الأساطيل أقدر على الحركة من الجيوش، حيث كان على الجيوش أن تتعامل مع عوائق مثل الجبال والغابات والمستنقعات والصحاري، فضلا عن عدم توفر طرق جيدة، ناهيك عن السكك الحديدية أو المركبات ذات المحركات. ولذلك كانت الجيوش المتمركزة على الأرض تتحرك ببطء، ما يعني أنها كانت تواجه صعوبة كبيرة في الدفاع عن السواحل ضد الغزو المنقول بحرا. وفي المقابل، كانت الأساطيل التي تسيطر على البحر تستطيع أن تتحرك بسرعة حول سطح المحيط وتنزل القوات على ساحل الخصم قبل أن يتمكن الجيش المتمركز على الأرض من الوصول إلى المكان لاعتراض الإنزال. ونظرا لأن الإنزال البرمائي كان سهلا نسبيا في تنفيذه في عصر الشراع، فلم تلجأ القوى العظمى إلا نادرا إلى شن هجمات برمائية من أراضي إحداها على الأخرى، بل كانت تنفذ إنزالا في مكان لا يتوفر للعدو فيه قوات كبيرة، علما بأن الهجمات البرمائية تنفذ في أوروبا منذ تأسيس نظام الدول في عام ١٦٤٨ إلى أن بدأت السفن البخارية تحل محل السفن الشراعية في منتصف القرن التاسع عشر.

ورغم السهولة النسبية لإنزال القوات على أرض العدو، فلم تكن الأساطيل تستطيع أن تضع قوات ضخمة على اليابسة وتساندها لفترات طويلة. فالأساطيل الشراعية كانت قدرتها على الحمل محدودة، وكانت لا تستطيع أن توفر الدعم

اللوجستيي الذي تحتاجه القوات الغازية للبقاء على أرض معادية[٧٨]. ولم تكن الأساطيل كذلك تستطيع أن تأتي بالتعزيزات والمؤن الضرورية بسرعة. علاوة أن جيش العدو الذي يحارب على أرضه كان يستطيع أن يصل في النهاية إلى القوة البرمائية ويهزمها في المعركة. ولذلك لم تكن القوى العظمى في عصر الشراع تلجأ كثيرا إلى الإنزال البرمائي في أوروبا على أرض قوى عظمى معادية أو أرض تخضع لسيطرتها، حتى أنه لم يحدث إنزال من هذا النوع على مدى القرنين السابقين على اندلاع الحروب النابليونية في عام ١٧٩٢، رغم أن إحدى القوى العظمى الأوروبية كانت في حالة حرب دائمة ضد الأخرى في أثناء تلك الفترة الطويلة[٧٩]. وكان الإنزالان البرمائيان الوحيدان في أوروبا في عصر الشراع هما العملية الإنجليزية-الروسية في هولندا (١٧٩٩) والغزو البريطاني للبرتغال (١٨٠٨)، وفي الحالتين هزمت القوات المنقولة بحرا، كما سيرد فيما يلي.

ومع دخول الحرب عصر الصناعة في القرن التاسع عشر أصبحت عمليات الغزو البرمائي واسعة النطاق ممكنة أكثر من قبل، لكنها ظلت مهمة مهولة جدا حين تنفذ ضد خصم جيد التسليح[٨٠]. كان التطور الأنفع من منظور الغزاة هو أن الأساطيل البخارية الجديدة كانت قادرة على حمل أعداد ومعدات أكبر من الأساطيل الشراعية، وأنها لم تعد تعتمد على أهواء الرياح. ولذلك أصبحت الأساطيل البخارية قادرة على إنزال أعداد أكبر من القوات على شواطئ العدو ومساندتها لفترات أطول مما كان في استطاعة أسلافها. ولذلك حذر اللورد بالمرستون Palmerston في عام ١٨٤٥ من أن "الإبحار البخاري ضيَّق ذلك الذي كان يستعصي عبوره على القوات العسكرية (القنال الإنجليزي) إلى مجرد نهر يمكن عبوره بجسر بخاري"[٨١].

لقد بالغ بالمرستون كثيرا في تصوير تهديد الغزو الممكن للمملكة المتحدة، لأن ثمة تطورات تقنية أخرى حدثت كان من شأنها أن تقاوم القوات المنقولة بحرا، وتحديدا جاء تطوير الطائرات والغواصات والألغام البحرية ليزيد صعوبة الوصول إلى شواطئ العدو، فيما جاء تطوير الطائرات والسكك الحديدية (ولاحقا الطرق الممهدة والشاحنات والدبابات) لتضعف احتمال النصر للقوات البرمائية بعد أن تُنزَل إلى اليابسة.

وقد لعبت السكك الحديدية التي بدأت تنتشر عبر أوروبا والولايات المتحدة في منتصف القرن التاسع عشر دورا كبيرا في حروب الوحدة الألمانية ضد النمسا (١٨٦٦) وفرنسا (١٨٧٠-١٨٧١) وفي الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١-١٨٦٥)[٨٢]. ولا تنتفع القوات البرمائية من السكك الحديدية لأنها تتحرك عبر مساحات مائية واسعة، ولأن القوات المنقولة بحرا لا تستطيع أن تجلب السكك الحديدية معها، ولأنه يصعب الاستيلاء على السكك الحديدية للعدو واستخدامها على المدى القريب على الأقل. ولذلك تزيد السكك الحديدية قدرة الجيش المتمركز على الأرض على دحر القوات البرمائية، لأنها تمكّن المُدافع من حشد قوات ضخمة بسرعة في مواقع الإنزال أو بالقرب منها. كما تصل الجيوش المحمولة على القضبان إلى ساحات المعارك في حالة بدنية ممتازة، لأنها تتجنب الإجهاد والتمزق الذي ينتج عن الزحف على الأقدام. وتمثل السكك الحديدية، علاوة على ذلك، أداة ممتازة لمساندة جيش مشتبك في معركة مع قوة برمائية. ولهذه الأسباب نفسها أضاف تطوير الطرق المعبدة والمركبات ذات المحركات والمركبات الآلية في العقد الأول من القرن العشرين إلى ميزة الجيش المتمركز على الأرض ضد الغزاة المنقولين بحرا.

استخدمت الطائرات في القتال لأول مرة في العقد الثاني من القرن العشرين، لكن الأساطيل لم تشرع في تطوير حاملات طائرات يمكن استخدامها لدعم العمليات البرمائية إلا في العقدين الثالث والرابع من القرن[٨٣]. لكن الدولة الإقليمية التي تتعرض للهجوم تستفيد من القوات الجوية أكثر بكثير من استفادة القوات البرمائية منها، لأن الأرض تسع طائرات أكثر كثيرا من أي عدد من حاملات الطائرات[٨٤]. والدولة الإقليمية بذلك تكون بمثابة حاملة طائرات ضخمة تستطيع أن تسع أعدادا لانهائية من الطائرات، في حين لا تسع حاملة الطائرات الفعلية إلا عددا محدودا من الطائرات. ولذلك فإذا تساوت العوامل الأخرى، تستطيع الدولة الإقليمية أن تسيطر على الجو وتستخدم تلك الميزة لقصف القوات البرمائية على الشواطئ أو حتى قبل أن تصل إلى الشواطئ. وتستطيع القوة المنقولة بحرا بالطبع أن تخفف هذه المشكلة إذا كان بإمكانها أن تعتمد على طائرات متمركزة على الأرض. على سبيل المثال كانت القوات المهاجمة في نورماندي في يونيو ١٩٤٤ تعتمد بشدة على الطائرات المتمركزة في إنجلترا.

تمتلك القوات الجوية المتمركزة على الأرض كذلك القدرة على إغراق الأسطول المعادي. فوضع القوات البحرية بالقرب من سواحل قوة عظمى تمتلك قوات جوية هائلة ينطوي على خطورة حقيقية. على سبيل المثال اقتربت قوافل الحلفاء المبحرة بين الموانئ البريطانية والآيسلندية وميناء مورمانسك السوفيتي من النرويج، بين شهري مارس وديسمبر ١٩٤٢، حيث كانت توجد قوات جوية ألمانية كبيرة. ألحقت تلك الطائرات الأرضية دمارا كبيرا بالقوافل حتى أواخر ١٩٤٢، حين ضعفت القوات الجوية الألمانية في المنطقة[٨٥]. ولذلك فحتى لو كان الأسطول يسيطر على البحر، فإنه لا يستطيع أن يقترب من دولة إقليمية إلا إذا كان يسيطر على الجو أيضا، وهو ما يصعب

تحقيقه بحاملات الطائرات وحدها، لأن القوات الجوية المتمركزة على الأرض تتفوق عدديا عادة على القوات الجوية المتمركزة في البحر بهامش كبير.

واستخدمت الغواصات أيضا لأول مرة في الحرب العالمية الأولى، وبالدرجة الأولى من جانب ألمانيا ضد سفن الحلفاء التجارية في المياه المحيطة بالمملكة المتحدة وفي المحيط الأطلنطي[٨٦]. ورغم أن حملة الغواصات الألمانية فشلت في النهاية، فقد أثبتت أن قوة الغواصات الكبيرة تستطيع بسهولة نسبية أن تدمر السفن التجارية غير المحمية. وشكلت الغواصات الألمانية أيضا تهديدا هائلا على الأسطول السطحي البريطاني الذي قضى زمن الحرب في لعبة القط والفأر في بحر الشمال مع الأسطول الألماني، حتى استولى الخوف من الغواصات الألمانية على قادة الأسطول البريطاني، حتى داخل موانئ بلادهم. لكنهم كانوا أكثر خوفا من الإبحار إلى بحر الشمال والاقتراب من الساحل الألماني، حيث كانت الغواصات تختبئ في انتظارهم. يكتب المؤرخ البحري بول هالبيرن Paul Halpern أن "خطر الغواصات كان العامل الأول الذي جعل بحر الشمال بالنسبة لسفن القتال الكبرى بمثابة أرض محايدة بين نظم الخنادق المتقاتلة على الأرض. فكانت لا تخاطر بالإبحار فيه إلا لأغراض محددة"[٨٧]. على أن تهديد الغواصات للسفن السطحية له مضامين مهمة على الأساطيل التي تنوي شن هجمات برمائية على سواحل الخصم، حيث يمكن للخصم الذي يمتلك قوة غواصات هائلة أن يغرق القوات المهاجِمة قبل أن تصل إلى الشواطئ أو يغرق معظم الأسطول المهاجِم بعد أن يكون قد أنزل القوات المهاجمة، ما يترك القوات المنقولة بحرا محاصَرة على الشواطئ.

وأخيرا، فإن الألغام البحرية والمتفجرات المثبتة التي تظل تحت الماء وتنفجر حين تضربها السفن المارة تزيد من صعوبة غزو دولة إقليمية من البحر[٨٨]. وقد استخدمت

obeikandi.com

الأساطيل الألغام بطريقة فعالة لأول مرة في الحرب الأهلية الأمريكية، لكنها استخدمت على نطاق واسع لأول مرة في الحرب العالمية الأولى. فزرع المتحاربون حوالي ٢٤٠٠٠٠ لغم بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، وحددت الألغام مسار الحرب بدرجة كبيرة[٨٩]. وكانت السفن السطحية لا تستطيع أن تمر سالمة في مياه مليئة بالألغام، ولذلك كانت حقول الألغام تحتاج لأن تمشط أولا، وتلك مهمة صعبة، بل مستحيلة أحيانا، في زمن الحرب. ولذلك تستطيع الدولة الإقليمية أن تستخدم الألغام بفعالية للدفاع عن سواحلها ضد الغزو. على سبيل المثال، لغَّم العراق المياه المقابلة للساحل الكويتي قبل أن تبدأ الولايات المتحدة وحلفاؤها في حشد القوات للغزو في حرب الخليج. وحين بدأت الحرب البرية في الرابع والعشرين من فبراير ١٩٩١، لم يقتحم جنود البحرية الأمريكية الشواطئ الكويتية، بل ظلوا على سفنهم في الخليج[٩٠].

ورغم صعوبة نجاح العمليات البرمائية على أرض تخضع لسيطرة قوة عظمى، فإنها تكون عملية وممكنة في ظروف خاصة، وتحديدا عندما تستخدم ضد قوة عظمى على شفا هزيمة ساحقة، وذلك بالدرجة الأولى لأن الضحية لا تمتلك الموارد الضرورية للدفاع عن نفسها. كما يمكن أن تنجح ضد قوى عظمى تدافع عن أراض شاسعة. ففي هذه الحالة تكون قوات المُدافِع متفرقة على منطقة واسعة، تاركة أراضيها عرضة للهجوم في مكان ما على المحيط، حيث تكون عمليات الإنزال البرمائي غير المعترَضة ممكنة إذا كانت قوات الدولة العظمى المدافِعة مشتتة، خاصة إذا كانت تخوض حربا على جبهتين، لأن جزءا كبيرا من قواتها سيكون مضطرا للبقاء على جبهة بعيدة عن الهجوم المنقول بحرا[٩١]. وفي كل الحالات يجب أن تمتلك القوات الغازية تفوقا جويا واضحا على مواقع الإنزال، بحيث تتمكن قواتها الجوية من تقديم دعم جوي عن قرب ومنع تعزيزات العدو من الوصول إلى تلك المنطقة الساحلية[٩٢].

لكن إذا لم تتوفر تلك الظروف وكانت القوة العظمى المدافعة تستطيع أن تستخدم جزءا كبيرا من قوتها العسكرية ضد القوات البرمائية، فإن القوات البرية ستتمكن بالتأكيد من إلحاق هزيمة مدمرة بالغزاة المنقولين بحرا. ولذلك يصعب أن نجد في السجل التاريخي حالات لعمليات برمائية موجهة ضد قوة عظمى، إلا حين تتوفر الظروف الخاصة السابقة. فالهجوم من البحر على قوات برية قوية أمر نادر فعلا.

تاريخ العمليات البرمائية

إن مسحا موجزا لتاريخ عمليات الغزو المنقول بحرا يقدم أدلة وفيرة على القوة المانعة للمياه. فلا توجد حالة شنت فيها قوة عظمى هجوما برمائيا على أراضي قوة عظمى أخرى جيدة التسليح. قبل الحرب العالمية الأولى دافع بعض المخططين البحريين البريطانيين عن غزو ألمانيا من البحر في بداية اندلاع أية حرب أوروبية عامة[٩٣]. لكن المخططين العسكريين والسياسيين المدنيين على حد سواء اعتبروا تلك الفكرة عملا انتحاريا. وكان كوربيت يعكس بالتأكيد التفكير السائد حينذاك حول هذه المسألة حين كتب في عام ١٩١١ أن "هزيمة أسطول العدو، كما يمكن أن نفعل، لن تلحق به ضررا كبيرا، إذ لا بد أن نفتح الطريق للغزو، لكن القوى القارية الكبرى ستسخر من ذهابنا للغزو بمفردنا"[٩٤]. ويبدو أن المستشار الألماني أوتو فون بسمارك فعل الشيء نفسه حين سأل حول طرق الرد إذا نزل الجيش البريطاني على السواحل الألمانية. ويقال إنه أجاب على نفسه بالقول بأنه يمكن "أن نطلب الشرطة المحلية لتعتقل هذا الجيش!"[٩٥] لم تفكر المملكة المتحدة جديا في غزو ألمانيا، سواء قبل أو بعد أن تندلع الحرب العالمية الأولى، لكنها أرسلت جيشها إلى فرنسا، حيث أخذ مكانه على الجبهة الغربية بجانب الجيش الفرنسي. واتبعت المملكة المتحدة استراتيجية مماثلة بعد أن غزت ألمانيا بولندا في الأول من سبتمبر ١٩٣٩.

ولم تفكر الولايات المتحدة وحلفاؤها جديا في أثناء الحرب الباردة في شن هجوم برمائي على الاتحاد السوفيتي[٩٦]. كما أدرك صناع السياسة الأمريكيون في أثناء الحرب الباردة أن الجيش السوفيتي لو اجتاح أوروبا الغربية، سيكون من شبه المستحيل أن يشن الجيشان الأمريكي والبريطاني غزو نورمانديا جديدا للعودة إلى القارة الأوروبية[٩٧]. فمن المحتمل ألا يحارب الاتحاد السوفيتي على جبهتين، ولذلك سيتمكن من حشد أفضل فرقه كلها في فرنسا، فضلا عن استخدام قوات جوية هائلة ضد القوات الغازية.

لم يشهد التاريخ الحديث حالات هجوم برمائي على أراض خاضعة لسيطرة قوة عظمى إلا في ظل الظروف الخاصة التي حددناها قبل قليل. ففي أثناء الحروب الثورية الفرنسية والنابليونية (١٧٩٢-١٨١٥)، على سبيل المثال، نفذ الأسطول البريطاني إنزالين برمائيين وهجوم برمائي واحد على أراض خاضعة لسيطرة فرنسا. وفشل الإنزالان، ونجح الهجوم.

أنزلت بريطانيا العظمى وروسيا قوات برمائية في هولندا الخاضعة لفرنسا في السابع والعشرين من أغسطس ١٧٩٩[٩٨] بهدف إكراه فرنسا التي كانت متورطة في حرب مع الجيشين النمساوي والروسي في وسط أوروبا على خوض حرب على جبهتين. وبعد فترة قصيرة من إنزال القوات الإنجليزية-الروسية في هولندا لفتح الجبهة الثانية، ربحت فرنسا انتصارات كبرى على الجبهة الأخرى، ولذلك خرجت النمسا من الحرب، ما أعطى فرنسا القدرة على تركيز قوتها العسكرية ضد القوات الغازية التي كانت سيئة التجهيز والمؤن منذ البداية (كان ذلك في عصر الشراع). ومن أجل تجنب الكارثة أجرى الجيشان البريطاني والروسي تغييرا مفاجئا بمغادرة هولندا بحرا، لكنهم لم يتمكنوا من مغادرة القارة وأجبروا على الاستسلام للجيش الفرنسي في الثامن عشر من أكتوبر ١٧٩٩، بعد أقل من شهرين من الإنزال الأولي.

حدث الإنزال البرمائي الثاني على الساحل البرتغالي في أغسطس ١٨٠٨ ، حين كانت آلة نابليون العسكرية غارقة إلى الأذقان في أسبانيا المجاورة[٩٩]. كانت البرتغال حينذاك يسيطر عليها جيش فرنسي صغير وضعيف ، ما مكّن المملكة المتحدة من إنزال قوات على شريط ساحلي يسيطر عليه مقاتلون برتغاليون متعاونون. طردت القوة البريطانية الغازية الجيش الفرنسي من البرتغال ، وتبعته إلى أسبانيا لتشتبك مع الجيوش الفرنسية الرئيسة على شبه الجزيرة الأيبيرية. وألحقت قوات نابليون هزيمة كبيرة بالجيش البريطاني الذي اضطر للجلاء عن أسبانيا عن طريق البحر في يناير ١٨٠٩ ، بعد ستة أشهر من الإنزال في البرتغال[١٠٠]. وفي الحالتين كلتيهما كان الإنزال الأولي ممكنا ؛ لأن الجزء الأكبر من القوات الفرنسية كان متورطا في مكان آخر ولأن الأسطول البريطاني تمكن من إيجاد مواقع إنزال آمنة. لكن بمجرد أن واجهت القوات البرمائية قوات فرنسية قوية حتى كانت تهرب سريعا إلى الشواطئ.

شن الجيش البريطاني هجوما برمائيا ناجحا ضد القوات الفرنسية في أبي قير المصرية في الثامن من مارس ١٨٠١. ولم يكن المدافعون في حقيقة الأمر غير بقايا الجيش الذي ذهب به نابليون إلى مصر في صيف ١٧٩٨[١٠١]. وبعدها بوقت قصير قطع الأسطول البريطاني خطوط الاتصال بين هذا الجيش وأوروبا ، ما حكم عليه بالدمار. أدرك نابليون الموقف الاستراتيجي المنعزل ، فتسلل عائدا إلى فرنسا في أغسطس ١٧٩٨. وهكذا فحين غزت بريطانيا مصر في عام ١٨٠١ ، كانت القوات الفرنسية هناك تحتضر تحت حصار بدأ قبل ثلاثة أعوام تقريبا وكانت غير مهيأة لخوض حرب ، علاوة على أنها كانت تحت قيادة تفتقر تماما إلى الكفاءة. ولذلك واجهت القوات البريطانية المهاجمة خصما أقل قوة في مصر. بل إن الجيش الفرنسي لم يبذل جهدا للدفاع عن الشواطئ في أبي قير ، وأدى بشكل سيئ في معارك لاحقة مع القوات البريطانية. وأعلنت القوات الفرنسية في مصر استسلامها في الثاني من سبتمبر ١٨٠١.

تعد حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) إحدى حالتين في كل التاريخ الحديث قامت فيهما قوة عظمى بغزو أراضي قوة عظمى أخرى من البحر (الحالة الأخرى هي غزو الحلفاء لصقلية في يوليو ١٩٤٣). ففي سبتمبر ١٨٥٤ نزل حوالي ٥٣٠٠٠ جندي بريطاني وفرنسي على شبه جزيرة القرم، ذلك الجزء البعيد من الأراضي الروسية الناتئ على البحر الأسود[١٠٢] بهدف تحدي السيطرة الروسية على البحر الأسود بالاستيلاء على القاعدة البحرية الروسية في سيفاستوبول Sevastopol التي كان يدافع عنها حوالي ٤٥٠٠٠ جندي روسي[١٠٣]. كانت العملية إنزالا برمائيا، وليس هجوما برمائيا. نزلت القوات الإنجليزية-الفرنسية على بعد حوالي خمسين ميلا شمال سيفاستوبول، حيث لم تواجه أية مقاومة روسية حتى أقامت رأس جسر ساحلي وتحركت داخل البلاد. ورغم الحماقة البريطانية والفرنسية الواضحة، سقطت سيفاستوبول في سبتمبر ١٨٥٥، وخسرت روسيا الحرب بعدها بوقت قصير، ووقعت معاهدة سلام في باريس في أوائل عام ١٨٥٦.

ثمة ظروف استثنائية تفسر حالة القرم. أولا، هددت المملكة المتحدة وفرنسا روسيا على مسرحين متباعدين تماما: بحر البلطيق والبحر الأسود. ولأن بحر البلطيق كان قريبا من مدن روسيا الرئيسة ولأن البحر الأسود كان بعيدا عنها، فقد احتفظت روسيا بمعظم جيشها بالقرب من بحر البلطيق. ولذلك فحتى بعد أن نزلت القوات البريطانية والفرنسية في شبه جزيرة القرم، لم تتحرك القوات الروسية في منطقة البلطيق من مكانها. ثانيا، أدت إمكانية وقوع هجوم نمساوي على بولندا إلى تجميد قوات روسية أخرى كان يمكن لولا ذلك أن ترسل إلى شبه جزيرة القرم. ثالثا، كانت شبكة النقل والاتصالات الروسية في منتصف القرن التاسع عشر بدائية، ولذلك كان يصعب على روسيا أن تموِّن قواتها في سيفاستوبول. وفي ذلك كتب المارشال هيلموت فون

مولتك Helmuth von Moltke مهندس الانتصارات البروسية على النمسا (١٨٦٦) وفرنسا (١٨٧٠-١٨٧١) أن "روسيا لو كانت تمتلك خطا حديديا إلى سيفاستوبول في عام ١٨٥٦، لربما اختلفت نتيجة الحرب"[١٠٤]. فضلا عن أن أهداف المملكة المتحدة وفرنسا كانت محدودة في شبه جزيرة القرم، إذ لم تهددا بتوسيع موطئ قدمهما هناك، ولم تهددا بالتأكيد بالتحرك شمالا لإنزال هزيمة حاسمة بروسيا. فالهجوم البريطاني والفرنسي المنقول بحرا عبر بحر البلطيق كان من شأنه وحده أن يؤدي إلى هزيمة روسية كبرى. ولذلك احتفظت روسيا بقوات كافية في منطقة البلطيق لردع مثل هذا الهجوم.

لم تنفذ في الحرب العالمية الأولى عمليات غزو منقولة بحرا على أراض خاضعة لسيطرة ألمانيا أو أية قوة عظمى أخرى. وكانت حملة جاليبولي Gallipoli الكارثية العملية البرمائية الرئيسة الوحيدة في هذه الحرب[١٠٥]، وفيها حاولت قوة بريطانية وفرنسية أن تستولي على شبه جزيرة جاليبولي التي كانت جزءا من تركيا وكانت ذات أهمية كبيرة للوصول إلى البحر الأسود. لم تكن تركيا قوة عظمى، لكنها كانت متحالفة مع ألمانيا، رغم أن القوات الألمانية لم تكن تحارب مع الأتراك. ومع ذلك تمكن الأتراك من احتواء قوات الحلفاء المهاجمة في مواقع إنزالها وإكراهها في النهاية على الانسحاب بحرا من جاليبولي.

حدثت عمليات برمائية كثيرة في الحرب العالمية الثانية على أراض خاضعة لسيطرة قوى عظمى. فعلى المسرح الأوروبي شنت القوات البريطانية والأمريكية خمس هجمات رئيسة منقولة بحرا[١٠٦]. فغزت قوات الحلفاء صقلية في يوليو ١٩٤٣ حين كانت إيطاليا لا تزال في الحرب (كانت في طريقها إلى الهزيمة) ثم غزت الجزيرة الإيطالية ذاتها في سبتمبر ١٩٤٣ بعد أن خرجت إيطاليا من الحرب مباشرة[١٠٧]. وكانت عمليتا الغزو ناجحتين. وبعد غزو جنوب إيطاليا، أعد الحلفاء لغزو واسع النطاق في

أنزيو Anzio في يناير ١٩٤٤[١٠٨] بهدف تطويق الجيش الألماني بإنزال قوة ضخمة منقولة بحرا على بعد حوالي خمسة وخمسين ميلا وراء الخطوط الألمانية. ورغم أن عملية الإنزال تمت بسهولة، فقد كان الفشل مآل عملية أنزيو، حيث جمد الفيرماخت القوات المهاجِمة في مناطق إنزالها، وظلت فيها حتى بدأ الجيش الألماني في التراجع شمالا نحو روما. وحدث الغزوان الأخيران ضد القوات الألمانية التي كانت تحتل فرنسا، وهما غزو نورماندي في يونيو ١٩٤٤ وغزو جنوب فرنسا في أغسطس ١٩٤٤. وكلاهما نجح وأسهم في سقوط ألمانيا النازية[١٠٩].

سأترك أنزيو قليلا لأقول إن عمليات الهجوم المنقول بحرا الأربع الأخرى نجحت بالدرجة الأولى؛ لأن الحلفاء كانوا يتمتعون بتفوق جوي كاسح في كل حالة، ما يعني أن القوات الغازية وليس القوات المدافِعة هي التي كانت تلقى مساندة المدفعية الطائرة. وكانت قوات الحلفاء الجوية قادرة أيضا على اعتراض حركة التعزيزات الألمانية إلى مناطق الإنزال، ما وفر الوقت للحلفاء لحشد قواتهم قبل أن يشتبكوا مع وحدات الفيرماخت الرئيسة. علاوة على أن ألمانيا التي كانت تحتل إيطاليا وفرنسا وتدافع عنهما حين حدثت هذه العمليات كانت تحارب في جبهتين وكانت معظم قواتها مجمدة على الجبهة الشرقية[١١٠]. وكذلك كان على الجيش الألماني في إيطاليا وفرنسا أن يغطي سواحل طويلة، ولذلك كان عليه أن يشتت قواته، ويتركها بذلك عرضة للاعتداءات البرمائية من الحلفاء التي تركزت في نقاط محددة على طول تلك السواحل. تخيل لو حدث غزو نورماندي ضد الفيرماخت وهو يسيطر على سماء فرنسا ولم يكن في حالة حرب مع الاتحاد السوفيتي، مؤكد أن الحلفاء ما كانوا ليتجاسروا على غزو فرنسا.

نتج الإنزال الناجح في أنزيو عن هذين العاملين عينهما، وهما التفوق الجوي الحاسم والمقاومة الألمانية المحدودة في مواقع الإنزال. لكن الحلفاء لم يتحركوا بسرعة

لاستغلال هذه الميزة الأولية ويحققوا نجاحا مذهلا. وفضلا عن بطء الحلفاء في التحرك إلى داخل البلاد من مناطق إنزالهم، فشلت قواتهم الجوية في منع الفيرماخت من نقل قوات هائلة إلى مناطق الإنزال، حيث تمكنوا من احتواء القوة الغازية. ولم يبذل الحلفاء جهدا لتوصيل تعزيزات لتقوية قوة الإنزال الأولية، وذلك بالدرجة الأولى لأن عملية أنزيو لم تكن مهمة كثيرا لنتيجة الحملة الإيطالية.

تندرج العمليات البرمائية في مسرح المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية في فئتين. نفذت اليابان على مدى الأشهر الستة التي تلت بيرل هاربر حوالي خمسين إنزالا وهجوما برمائيا في غرب المحيط الهادي على أراض تدافع عنها قوات بريطانية بالدرجة الأولى، وأخرى تدافع عنها قوات أمريكية[١١١]. وكان من بين أهداف اليابان: ماليزيا وبورنيو البريطانية وهونج كونج والفلبين وتيمور وجاوه وسومطرة وغينيا الجديدة على سبيل المثال للحصر. وكانت هذه العمليات البرمائية كلها تقريبا ناجحة، ما أعطى اليابان إمبراطورية جزيرية شاسعة في منتصف عام ١٩٤٢. وقد نتجت نجاحات اليابان البرمائية عن الظروف الخاصة التي حددناها آنفا: التفوق الجوي على مواقع الإنزال، وعجز قوات الحلفاء الضعيفة والمعزولة عن الدفاع عن السواحل الطويلة المخصصة لها[١١٢].

ونفذ الجيش الأمريكي اثنتين وخمسين عملية غزو برمائي على الجزر الخاضعة للسيطرة اليابانية في المحيط الهادي في الحرب العالمية الثانية[١١٣]. وكانت هذه الحملات أساسية لتدمير الامبراطورية الجزيرية التي شيدتها اليابان في وقت سابق من الحرب بعملياتها البرمائية. كانت بعض عمليات الغزو الأمريكية محدودة في نطاقها، وكان كثير منها إنزالا بدون مقاومة. لكن ثمة عمليات أخرى، مثل عملية أوكيناوا، أصبحت دموية حين تحركت القوات الغازية إلى الداخل وواجهت مقاومة يابانية قوية. وتضمنت

بعض هذه العمليات، مثل تاراوا Tarawa وسايبان Saipan وأيو جيما Iwo Jima، هجوما ضخما منقولا بالبحر على شواطئ بها دفاع قوي. وقد نجحت عمليات الغزو المنقولة بحرا، لكن ثمن النصر كان باهظا أحيانا.

نتج هذا السجل الرائع جزئيا عن التفوق الجوي الأمريكي. يؤكد ذلك ما جاء في تقرير القصف الاستراتيجي الأمريكي: "كانت سلسلة عمليات الإنزال التي نفذناها ناجحة دائما؛ لأن الهيمنة الجوية كانت متحققة دائما في المنطقة المستهدفة قبل محاولة الإنزال"[١١٤]. كانت السيطرة على الجو تعني أن القوات الأمريكية الغازية يتوفر لها دعم جوي قريب، بينما لا يتوفر ذلك للقوات اليابانية، ومكّنت الولايات المتحدة كذلك من تركيز قواتها ضد جزر معينة على حافة الإمبراطورية اليابانية في المحيط الهادي وقطع تدفق المؤن والتعزيزات عن تلك النقاط الأمامية[١١٥]. "وبذلك أصبحت نقاط الدفاع اليابانية المحيطية مجرد حاميات معزولة محرومة من التعزيزات وعرضة للتدمير الفردي الكامل"[١١٦]. علاوة على أن اليابان كانت تحارب على جبهتين وكان جزء صغير فقط من جيشها موجودا على تلك الجزر، فيما كان معظم جيشها موجودا على البر الآسيوي الرئيس وفي اليابان نفسها.

وأخيرا، ينبغي أن نضع في الحسبان أن الولايات المتحدة كانت تخطط لغزو اليابان حين انتهت الحرب العالمية الثانية في أغسطس ١٩٤٥. ولا شك في أن القوات الأمريكية المنقولة بحرا كانت ستهاجم جزر اليابان الرئيسة لو لم تستسلم، وأن الغزو كان سينجح.

كانت العمليات البرمائية على اليابان ممكنة في أواخر عام ١٩٤٥ لأن اليابان كانت قوة عظمى منهكة حتى الموت وما كان على القوات المهاجمة إلا أن تنفذ الضربة القاضية. فمن معركة ميدواي في يونيو ١٩٤٢ حتى الاستيلاء على أوكيناوا في يونيو

١٩٤٥، دمر الجيش الأمريكي القوات اليابانية في المحيط الهادي[١١٧]. وبحلول صيف ١٩٤٥ كانت إمبراطورية اليابان في المحيط الهادي قد انهارت، وكانت بقايا أسطولها القوي السابق عديمة الفائدة أمام الآلة العسكرية الأمريكية. وانهار الاقتصاد الياباني بحلول ربيع ١٩٤٥، مع أنه في بداية الحرب العالمية الثانية لم يكن يزيد في الحجم عن ثُمن الاقتصاد الأمريكي[١١٨]. وبحلول صيف ١٩٤٥ كانت القوات الجوية اليابانية قد دُمِرت تماما، مثل قواتها البحرية، ما أعطى الطائرات الأمريكية السيطرة على سماء اليابان. وتُرِكَ الجيش ليدافع عن اليابان كلها. وهنا أيضا ابتسم الحظ للولايات المتحدة، لأن أكثر من نصف وحدات اليابان البرية كانت مرابطة على البر الآسيوي الرئيس، ولم يكن باستطاعتها التأثير على الغزو الأمريكي من مكانها[١١٩]. بإيجاز كانت اليابان قوة عظمى بالاسم فقط بحلول صيف ١٩٤٥، ما جعل صناع السياسة الأمريكيين يؤيدون فكرة غزو اليابان. لكنهم مع ذلك كانوا ملتزمين بشدة بتجنب الهجوم البرمائي على اليابان نفسها خوفا من وقوع إصابات كبيرة في صفوف قواتهم[١٢٠].

القوى العظمى القارية في مقابل القوى العظمى الجزيرية

يبيّن السجل التاريخي بطريقة أخرى صعوبة مهاجمة أراضي قوة عظمى من البحر مقارنة بغزوها من البر. ويمكننا على وجه التحديد أن نميز بين الدول الجزيرية والقارية. الدولة الجزيرية insular state هي القوة العظمى الوحيدة على كتلة يابسة كبيرة تحيطها المياه من كل الجوانب. قد تكون هناك قوى عظمى أخرى على الكوكب، لكن تفصلها عن الدولة الجزيرية مساحات مائية شاسعة. وتعد المملكة المتحدة واليابان مثالين واضحين للدول الجزيرية، حيث تشغل كل واحدة منها جزيرة كبيرة قائمة بنفسها. والولايات المتحدة هي الأخرى قوة جزيرية؛ لأنها القوة العظمى الوحيدة في نصف الكرة الأرضية الغربي. أما الدولة القارية continental state، في المقابل، فهي

قوة عظمى تقع على يابسة شاسعة تشاركها فيها قوة عظمى أخرى واحدة أو أكثر. وفرنسا وألمانيا وروسيا أمثلة واضحة للدول القارية.

إن القوى العظمى الجزيرية لا يمكن أن تُهاجَم إلا من المياه، فيما يمكن أن تُهاجَم القوى القارية من البر ومن المياه، على فرض أنها ليست محاطة باليابسة من كل جانب[١٢١]. وبالنظر إلى القوة المانعة للمياه، يمكن للمرء أن يتوقع أن تكون الدول الجزيرية أقل عرضة للغزو من الدول القارية، وأن الدول القارية تُغزى عبر البر أكثر منها عبر المياه. ولكي نختبر هذه الحجة، سنرجع إلى السجل التاريخي لقوتين عظميين جزيريتين، هما المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وقوتين عظميين قاريتين، هما فرنسا وروسيا، مع التركيز على عدد المرات التي تعرضت كل منها للغزو، وطريق هذا الغزو: البر أم البحر.

كانت المملكة المتحدة حتى عام ١٩٤٥ قوة عظمى لأكثر من أربعة قرون، دخلت خلالها حروبا لا تحصى. لكنها على مدى تلك الفترة الطويلة لم تتعرض للغزو من جانب قوة عظمى أخرى، ناهيك عن قوة صغرى[١٢٢]. كان الخصوم بالتأكيد يهددون أحيانا بإرسال قوات غازية عبر القنال الإنجليزي، لكن أحدا منهم لم يرسل سفنا هجومية. على سبيل المثال، خططت أسبانيا لغزو إنجلترا في عام ١٥٨٨، لكن هزيمة الأسطول الأسباني في العام نفسه قبالة الساحل الإنجليزي قضت على القوات البحرية التي كان يفترض أن ترافق الجيش الأسباني عبر القنال الإنجليزي[١٢٣]. ومع أن كلا من نابليون وهتلر فكرا في غزو المملكة المتحدة، إلا أن أحدا منهما لم يحاول ذلك[١٢٤].

وعلى نحو ما أوضح تاريخ المملكة المتحدة، لم تتعرض الولايات المتحدة للغزو منذ أن أصبحت قوة عظمى في عام ١٨٩٨[١٢٥]. شنت بريطانيا عددا من الهجمات

واسعة النطاق على الأراضي الأمريكية في أثناء حرب عام ١٨١٢، وهاجمت المكسيك تكساس في حرب عام ١٨٤٦-١٨٤٨. لكن تلك النزاعات وقعت قبل فترة طويلة من تحول الولايات المتحدة إلى قوة عظمى، رغم أن المملكة المتحدة والمكسيك لم تهددا بغزو الولايات المتحدة[١٢٦]. والأهم من ذلك أن الولايات المتحدة لم تتعرض منذ أن أصبحت قوة عظمى في نهاية القرن التاسع عشر إلى تهديد جدي بالغزو. وربما تكون الولايات المتحدة أكثر قوة عظمى آمنة في التاريخ، وذلك يرجع بالدرجة الأولى لأنه يفصلها دائما عن القوى العظمى الأخرى خندقان مائيان عظيمان، هما المحيط الأطلنطي والمحيط الهادي.

تبدو القصة مختلفة تماما حين نتحول إلى فرنسا وروسيا. فقد اجتاحت فرنسا جيوش معادية سبع مرات منذ عام ١٧٩٢ وتحول ثلاثة منها إلى غزو. ففي أثناء الحروب الثورية الفرنسية والنابليونية (١٧٩٢-١٨١٥) هاجمت الجيوش المعادية فرنسا في أربع مناسبات منفصلة (في أعوام ١٧٩٢ و١٧٩٣ و١٨١٣ و١٨١٥) وأنزلت بنابليون أخيرا هزيمة فاصلة انتهت بالغزو الأخير. كما هزمت بروسيا فرنسا وغزتها في عامي ١٨٧٠-١٨٧١، وغزاها الجيش الألماني مرة أخرى في عام ١٩١٤، رغم أن فرنسا هربت بالكاد من الهزيمة في الحرب العالمية الأولى. وغزتها ألمانيا مرة أخرى في عام ١٩٤٠، بل واحتلتها لأعوام. جاءت القوات الغازية في المرات السبع جميعها عبر البر، ولم تُغز فرنسا من البحر أبدا[١٢٧].

تعرضت روسيا- تلك الدولة القارية الأخرى- للغزو خمس مرات على مدى القرنين الماضيين. فقد دخل نابليون موسكو في عام ١٨١٢، وهاجمت فرنسا والمملكة المتحدة شبه جزيرة القرم في عام ١٨٥٤. وهزم الجيش الألماني روسيا هزيمة ساحقة وغزاها في الحرب العالمية الأولى، وبعدها بقليل تعرض الاتحاد السوفيتي حديث النشأة

obeikandi.com

للغزو في عام ١٩٢١ من جانب بولندا التي لم تكن قوة عظمى. وغزاه الألمان مرة ثانية في صيف ١٩٤١، وكان هذا الغزو بداية لواحدة من أشد الحملات العسكرية في التاريخ المدوَّن. جاء الغزاة جميعا عبر البر، باستثناء الهجوم الإنجليزي-الفرنسي في شبه جزيرة القرم[١٢٨].

خلاصة القول إن القوتين العظميين الجزيريتين (المملكة المتحدة والولايات المتحدة) لم تتعرضا للغزو أبدا، في حين تعرضت القوتان العظميان القاريتان (فرنسا وروسيا) للغزو اثنتي عشرة مرة منذ عام ١٧٩٢. ودخل الغزاة لهاتين الدولتين القاريتين عبر البر في إحدى عشرة مرة، ومرة واحدة من البحر. والدرس الواضح هنا هو أن المساحات المائية الواسعة تجعل من غزو أراض تدافع عنها قوة عظمى جيدة التسليح أمرا صعبا جدا على أي جيش.

ركزت المناقشة فيما سبق على القوات العسكرية التقليدية، وأكدت أن القوات البرية أهم كثيرا للنصر في حروب القوى العظمى من القوة البحرية المستقلة أو القوات الجوية الاستراتيجية. لكننا لم نقل شيئا عن تأثير الأسلحة النووية على القوة العسكرية.

الأسلحة النووية وتوازن القوة

تمثل الأسلحة النووية ثورة بالمعنى العسكري، لأنها تستطيع أن تُحدِث مستويات غير مسبوقة من الدمار في فترات قصيرة[١٢٩]. ففي أثناء معظم الحرب الباردة، على سبيل المثال، كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تمتلكان القدرة على تدمير إحداهما الأخرى في ظرف أيام، إن لم يكن ساعات. لكن ليس ثمة اتفاق حول الطريقة التي تؤثر بها الأسلحة النووية على سياسة القوى العظمى، وتوازن القوة تحديدا. يدفع البعض بأن الأسلحة النووية تقضي تماما على التنافس الأمني بين القوى العظمى؛ لأن الدول النووية لا تجرؤ إحداها على الهجوم على الأخرى خوفا من

الإبادة. ووفقا لهذا المنظور تصير المناقشة السابقة للقوة العسكرية التقليدية غير ذات أهمية في العصر النووي. لكن هناك من يدفعون بالحجة المقابلة، وهي أن الأسلحة النووية نظرا لقدرتها التدميرية المخيفة لن يلجأ قائد عقلاني لاستخدامها أبدا حتى لأغراض الدفاع عن النفس. ولذلك لا تخفف الأسلحة النووية من حدة التنافس الأمني، ويظل توازن القوة العسكرية التقليدية هو الأهم.

لكن إذا حققت قوة عظمى واحدة تفوقا نوويا، وهذا أمر غير مرجح، فإنها تصبح دولة مهيمنة، ما يعني عدم وجود قوة عظمى تنافسها على الأمن. وفي هذه الحالة لا يكون للقوات التقليدية تأثير على توازن القوة. لكن في الحالة الأرجح التي توجد فيها قوتان عظميان أو أكثر تمتلك قوة نووية انتقامية قادرة على النجاة من الضربة الأولى، يستمر التنافس الأمني بينها، وتظل القوات البرية المكون الرئيس للقوة العسكرية، فضلا عن أن وجود الأسلحة النووية يجعل إحدى الدول أكثر ترددا في استخدام القوة العسكرية، أيا كان نوعها، ضد الأخرى.

التفوق النووي

يتحقق التفوق النووي في أوضح أشكاله حين تكون إحدى القوى العظمى قادرة على تدمير مجتمع الخصم بدون خوف من تعرض مجتمعها لانتقام هائل. مؤدى ذلك أن التفوق النووي يعني أن الدولة تستطيع أن تحوِّل قوة عظمى معادية إلى "دمار" وتظل هي ذاتها في مأمن[١٣٠]. تستطيع تلك الدولة كذلك أن تستخدم ترسانتها النووية لتدمير القوات التقليدية للخصم، أيضا بلا خوف من الانتقام النووي. وتكمن الطريقة المثلى التي تحقق الدولة التفوق النووي من خلالها في تسليح نفسها بالأسلحة النووية، مع ضمان عدم إتاحة هذه الأسلحة لدولة أخرى. والدولة ذات الاحتكار النووي – بالتعريف– دولة لا تقلق من أي نوع من الانتقام إذا استخدمت أسلحتها النووية.

وفي العالم الذي توجد فيه دولتان نوويتان أو أكثر، تحقق الدولة التفوق إذا امتلكت القدرة على تحييد الأسلحة النووية لخصومها. ويستلزم تحقيق هذا التفوق أن تمتلك الدولة قدرة "الضربة الأولى الهائلة" splendid first strike للترسانات النووية لخصومها أو تمتلك القدرة على الدفاع عن نفسها ضد الهجوم بأسلحة نووية[١٣١]. ولا يتحقق التفوق النووي بمجرد امتلاك أسلحة نووية أكثر من الدولة الأخرى. فهذا التفاوت يكون بلا معنى تماما، طالما أن ما يكفي من الترسانة النووية الأصغر يمكن أن ينجو من الضربة الأولى لإنزال عقاب هائل بالدولة ذات الترسانة الأكبر.

والدولة التي تنجز التفوق النووي على منافسيها تصبح فعليا القوة العظمى الوحيدة في النظام بسبب الميزة الضخمة التي تترتب على ذلك على قوة الدولة. والدولة المهيمنة النووية تستطيع أن تهدد باستخدام ترسانتها القوية لإنزال دمار واسع بالدول المعادية، دمار يقضي عمليا على وجودها ككيانات سياسية قابلة للحياة. ولن يتمكن الضحايا المحتملون من الانتقام بأية طريقة، ما يجعل هذا التهديد مؤكدا. وتستطيع الدولة المهيمنة النووية أيضا أن تستخدم أسلحتها الفتاكة لأغراض عسكرية، مثل ضرب التجمعات الكبيرة لقوات العدو البرية أو قواعده الجوية أو سفنه الحربية أو الأهداف الرئيسة في نظام القيادة والسيطرة لدى الخصم. وهنا أيضا لا تمتلك الدولة المستهدَفة قدرة مكافئة، ما يعطي ميزة حاسمة للدولة المهيمنة النووية، بغض النظر عن توازن القوة التقليدية.

تسعى القوى العظمى جميعها إلى تحقيق التفوق النووي، لكن ذلك لا يرجح أن يحدث كثيرا، وحين يحدث لا يرجح أن يدوم طويلا[١٣٢]. فمن المؤكد أن المنافسين غير النوويين سيفعلون ما بوسعهم لامتلاك ترسانات نووية، وحينما ينجحون، سيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل على القوة العظمى أن تعيد تحقيق التفوق بتأمين

نفسها من الهجوم النووي[١٣٣]. فالولايات المتحدة، على سبيل المثال، احتكرت الأسلحة النووية من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٩، لكنها لم تكن تمتلك تفوقا نوويا بأي معنى حقيقي في تلك الفترة القصيرة[١٣٤]. فلم تكن ترسانتها النووية صغيرة في تلك الأعوام وحسب، بل إن وزارة الدفاع الأمريكية لم تطور وسائل فعالة لتوصيل هذه الأسلحة إلى الأهداف الملائمة في الاتحاد السوفيتي.

وبعد أن فجر الاتحاد السوفيتي سلاحا نوويا في عام ١٩٤٩، حاولت الولايات المتحدة أن تحقق تفوقا نوويا على خصمها، لكن دون جدوى. ولم يتمكن السوفييت أيضا من تحقيق ميزة نووية حاسمة على الأمريكيين في أي وقت خلال الحرب الباردة. ولذلك كان على كل طرف أن يتعايش مع حقيقة أنه أيا كانت الطريقة التي يستخدم بها القوة النووية، سيظل الطرف الآخر يمتلك قوة نووية انتقامية قادرة على النجاة من الضربة الأولى تستطيع أن تلحق بالمهاجِم دمارا غير مسبوق. وهذا هو "مأزق تكساس" الذي أصبح يعرف باسم "التدمير المتبادل المؤكد" mutual assured destruction (MAD) لأن الطرفين سيُدمرَان إذا بدأ أحدهما حربا نووية على الآخر. ومهما سعت الدول لتجاوز وضعية التدمير المتبادل المؤكد وتحقيق التفوق النووي، فمن غير المرجح أن يحدث ذلك في المستقبل المنظور[١٣٥].

القوة العسكرية في عالم التدمير المتبادل المؤكد

يتميز عالم التدمير المتبادل المؤكد بالاستقرار على المستوى النووي، وذلك في المقام الأول لعدم توفر الدافع لدى أية قوة عظمى لأن تبدأ حربا نووية لن تتمكن من الفوز بها، لأن هذه الحرب قد تؤدي إلى تدميرها كمجتمع قابل للحياة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما تأثير توازن الرعب على فرص الحروب التقليدية بين القوى العظمى النووية؟ ترى إحدى المدارس الفكرية أنه من غير المرجح أن تستخدم الأسلحة النووية في عالم التدمير المتبادل المؤكد لدرجة أن القوى العظمى ستخوض حروبا

تقليدية كما لو كانت لا تمتلك أسلحة نووية. وفي ذلك يدفع وزير الدفاع الأمريكي السابق روبرت مكنمارا، على سبيل المثال، بأن "الأسلحة النووية لا تؤدي غرضا عسكريا مفيدا على الإطلاق. فهي عديمة الفائدة كليا، باستثناء ردعها للخصم عن استخدامها"[١٣٦]. ولا تؤثر الأسلحة النووية، وفقا لهذا المنطق، على سلوك الدولة على المستوى التقليدي، ولذلك تستطيع القوى العظمى أن تدخل في تنافس أمني، تماما كما كانت تفعل قبل اختراع الأسلحة النووية[١٣٧].

تكمن المشكلة في هذا المنظور في استناده إلى فرضية أن القوى العظمى يمكن أن تثق تماما في أن الحرب التقليدية واسعة النطاق لن تتحول إلى حرب نووية. ونحن لا نعرف الكثير حول ديناميات التصعيد من المستوى التقليدي إلى المستوى النووي، وذلك (لحسن الحظ) لعدم وجود تاريخ يمكن أن نعتمد عليه في الاستنتاج. لكن تؤكد بحوث كثيرة أن هناك احتمالا معقولا لأن تتصاعد الحرب التقليدية بين القوى النووية إلى حرب نووية[١٣٨]. ولذلك يرجح أن تكون القوى العظمى في عالم التدمير المتبادل المؤكد حذرة حين تفكر إحداها في شن حرب تقليدية على الأخرى أكثر منها في ظل غياب الأسلحة النووية.

وتدفع مدرسة فكرية ثانية بأنه ليس ثمة ما يقلق القوى العظمى في عالم التدمير المتبادل حول التوازن التقليدي؛ لأن إحدى القوى العظمى النووية لن تهاجم الأخرى باستخدام القوات التقليدية خوفا من التصعيد النووي[١٣٩]. وترى هذه الحجة أن القوى العظمى تصير آمنة جدا في عالم التدمير المتبادل المؤكد، ولذلك لا تمتلك مبررا وجيها للتنافس على الأمن. معنى ذلك أن الأسلحة النووية جعلت حروب القوى العظمى مستحيلة فعليا، وبذلك أبطلت قول كارل فون كلاوزفيتز Carl von Clausewitz بأن الحرب توسيع للسياسة بوسائل أخرى. فقد أبطل توازن الرعب توازن القوة البرية.

تكمن المشكلة في هذا المنظور في ذهابه إلى النهاية الأخرى على متصل التصعيد، وتحديدا في استناده إلى فرضية أنه من المرجح، إن لم يكن من التلقائي أن تتصاعد الحرب التقليدية إلى المستوى النووي، فضلا عن افتراضه أن كل القوى العظمى ترى أن الحرب التقليدية والنووية جزء من شبكة متصلة، ولا معنى بالتالي للتمييز بين نوعي الحرب. وكما تؤكد المدرسة الفكرية الأولى، يدفع الرعب المؤكد المقترن بالأسلحة النووية صناع السياسة إلى ضمان ألا تتصاعد الحروب التقليدية إلى المستوى النووي. وعليه يمكن لقوة عظمى نووية أن تستنتج أنها يمكن أن تخوض حربا تقليدية مع خصم نووي بدون أن تتحول إلى حرب نووية، خاصة إذا خفضّت القوة المهاجمة سقف أهدافها ولم تهدد بإلحاق هزيمة حاسمة بخصمها[١٤٠]. وبمجرد أن تدرك القوى العظمى هذه الإمكانية، لن يكون أمامها خيار غير التنافس على الأمن على المستوى التقليدي، تماما كما كانت تفعل قبل وصول الأسلحة النووية.

تبيّن الحرب الباردة أن القوى العظمى في عالم التدمير المتبادل المؤكد لا تزال تدخل في تنافس أمني حاد، وأنها لا تزال تهتم كثيرا بالقوات التقليدية، خاصة توازن القوة البرية. فقد تنافست الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فيما بينهما على الحلفاء والقواعد في جميع أنحاء الكرة الأرضية منذ اشتعال التنافس بينهما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهايته بعد حوالي خمسة وأربعين عاما. كان هذا الصراع طويلا وقاسيا، لكن أحدا من الرؤساء الأمريكيين التسعة ولا القيادات السوفيتية الستة، على ما يبدو، لم يقتنع بأنه آمن جدا في عالم التدمير المتبادل المؤكد، لدرجة أنه غض الطرف عما يحدث خارج حدود دولته. فرغم الترسانة النووية الهائلة لديهما، استثمر الطرفان موارد ضخمة في قواتهما التقليدية، وانشغلا كثيرا بتوازن القوات البرية والجوية في أوروبا والأماكن الأخرى حول العالم[١٤١].

ثمة أدلة أخرى تثير الشك في ادعاء أن الدول التي تمتلك قدرة التدمير المؤكد تكون آمنة جدا ولا تقلق كثيرا من الدخول في حروب تقليدية. فمصر وسوريا رغم علمهما في عام ١٩٧٣ بامتلاك إسرائيل لأسلحة نووية، شنتا عليها هجمات برية هائلة[١٤٢]. بل إن الهجوم السوري على مرتفعات الجولان الواقعة على باب إسرائيل فتح الباب لفترة قصيرة أمام الجيش السوري للتوغل إلى قلب إسرائيل. واندلع القتال أيضا بين الصين والاتحاد السوفيتي على طول نهر أوسوري Ussuri في ربيع ١٩٦٩ وبدا أنه سيتصاعد إلى حرب كاملة[١٤٣]، وكانت الصين والاتحاد السوفيتي تمتلكان ترسانات نووية في ذلك الوقت. وهاجمت الصين القوات الأمريكية في كوريا في خريف ١٩٥٠، مع أن الصين لم تكن تمتلك أسلحة نووية وأن الولايات المتحدة كانت تمتلك ترسانة نووية، وإن كانت صغيرة.

وتلقي العلاقات بين الهند وباكستان خلال العقد الماضي(٢) هي الأخرى ظلالا من الشك على ادعاء أن الأسلحة النووية تقضي على التنافس الأمني بين الدول إلى حد بعيد وتجعل الدول تشعر أنها تمتلك أمنا وفيرا. فرغم أن الهند وباكستان تمتلكان أسلحة نووية منذ أواخر الثمانينات، فإن التنافس الأمني بينهما لم يختف. بل إنهما تورطتا في أزمة خطيرة في عام ١٩٩٠ ودخلتا في عام ١٩٩٩ في مناوشات حدودية خطيرة (تضمنت مقتل أكثر من ألف شخص في المعارك)[١٤٤].

وأخيرا، انظر كيف تفكر روسيا والولايات المتحدة اليوم في القوات التقليدية، رغم امتلاكهما لترسانات نووية ضخمة. توضح مقاومة روسيا الثابتة لتوسيع حلف شمال الأطلنطي أنها تخشى من فكرة اقتراب القوات التقليدية للحلف من حدودها. معنى ذلك أن روسيا لا تقبل فكرة أن قوتها الانتقامية النووية القوية توفر لها أمنا

---

(٢) العقد الماضي على صدور الكتاب في عام ٢٠٠١، أي العقد الأخير من القرن العشرين [المترجم].

مطلقا. ويبدو أن الولايات المتحدة أيضا تعتقد أنها يجب أن تقلق حول التوازن التقليدي في أوروبا. فتوسيع حلف شمال الأطلنطي كان يستند إلى اعتقاد بأن روسيا قد تحاول يوما أن تغزو أراضي في أوروبا الوسطى. ولا تزال الولايات المتحدة تصر على أن تلتزم روسيا بالقيود الواردة في معاهدة القوات المسلحة التقليدية في أوروبا Treaty on Conventional Armed Forces in Europe التي وقعت في التاسع عشر من نوفمبر ١٩٩٠ قبل أن ينهار الاتحاد السوفيتي.

مؤدى ذلك أن توازن القوة البرية لا يزال يشكل المكون الرئيس للقوة العسكرية في العصر النووي، رغم أن الأسلحة النووية تقلل بلا شك من احتمالات حروب القوى العظمى. وبعد أن فصَّلنا القول حول أسبقية القوة البرية، حان الوقت لأن نعرض طرق قياسها.

قياس القوة العسكرية

يتألف تقييم توازن القوة البرية من عملية مكونة من ثلاث خطوات. أولا يجب تقدير الحجم والنوعية النسبيين للجيوش المنافسة. وينبغي تقييم قوة تلك القوات في زمن السِلم وكذلك بعد التعبئة، لأن الدول تحتفظ غالبا بجيوش دائمة صغيرة تتوسع سريعا في الحجم حين يستدعى الاحتياط للخدمة الفعلية.

على أنه لا توجد طريقة بسيطة لقياس قوة الجيوش المنافسة، وذلك بالدرجة الأولى؛ لأن قوتها تعتمد على عوامل متنوعة تختلف جميعها من جيش لآخر: (١) عدد الجنود، (٢) نوعية الجنود، (٣) عدد الأسلحة، (٤) نوعية الأسلحة، (٥) طريقة تنظيم أولئك الجنود والأسلحة للحرب. ولا بد أن يأخذ أي مؤشر جيد للقوة البرية كل هذه المُدخلات في حسبانه. وأحيانا تكون مقارنة عدد الوحدات المقاتلة

الأساسية في الجيوش المنافسة، سواء كانت ألوية أو فرقا، طريقة معقولة لقياس التوازن البري، رغم أهمية مراعاة الاختلافات الكمية والنوعية بين تلك الوحدات.

كان من الصعب في أثناء الحرب الباردة، على سبيل المثال، تقييم التوازن التقليدي بين منظمة حلف شمال الأطلنطي وحلف وارسو بسبب الاختلافات الكبيرة في حجم وتكوين الجيوش المختلفة على الجبهة الوسطى[١٤٥]. وللتعامل مع هذه المشكلة ابتكرت وزارة الدفاع الأمريكية درجة "مكافئ الفرقة المدرعة" armored division equivalent (ADE) كمقياس أساسي لقدرة القوات البرية. كانت هذه الدرجة تستند في المقام الأول إلى تقييم كمية ونوعية الأسلحة في كل جيش[١٤٦]. وبعد ذلك أدخل العالم السياسي باري بوزين Barry Posen تحسينا مهما على ذلك المقياس ليصبح مؤشرا مفيدا للقوة النسبية للجيوش في أوروبا[١٤٧].

حاول عدد من الدراسات أن يقيس توازن القوة في حالات تاريخية محددة، لكن لا تتوفر دراسة أجرت مقارنة منظمة ومتأنية لمستويات القوة لدى الجيوش المختلفة على مدى فترات زمنية طويلة. ولذلك لا تتوفر قاعدة بيانات جيدة يمكن الاعتماد عليها لقياس القوة العسكرية على مدى القرنين الماضيين. ويتطلب بناء هذه القاعدة جهدا هائلا يتجاوز نطاق هذا الكتاب. وبناء على ذلك فإنني حين أقيِّم قوة الجيوش المتنافسة في الفصول التالية أجمع بين البيانات المتوفرة حول حجم ونوعية الجيوش وأخرج بمؤشرات تقريبية للقوة العسكرية. فأبدأ بحساب عدد الجنود في كل جيش، وهي مهمة سهلة في إنجازها، ثم أحاول استنباط العوامل الأربعة الأخرى التي تؤثر على قوة الجيش، وهي مهمة أصعب كثيرا.

تتمثل الخطوة الثانية عند التصدي لتقييم توازن القوة البرية في تضمين القوات الجوية التي تقدم الدعم للجيوش[١٤٨]. وهنا ينبغي تقييم مخزون الطائرات على كل

Obeikandi.com

جانب، مع التركيز على الأعداد والنوعية المتوفرة. وينبغي وضع كفاءة الطيارين أيضا في الاعتبار، وكذلك قوة كل جانب في: (١) نظم الدفاع الجوي المتمركزة على الأرض، (٢) قدرات الاستطلاع، (٣) نظم إدارة المعركة.

ثالثا، يجب أن يأخذ التقييم في حسبانه القدرة على إظهار القوة لدى الجيوش، مع الانتباه بوجه خاص إلى ما إذا كانت هناك مساحات مائية واسعة تقيِّد القدرة الهجومية للجيش. وفي حال وجود مثل هذه المساحات المائية، ووجود حليف على الجانب الآخر منها، فينبغي أن نقيِّم قدرة القوات البحرية على حماية حركة القوات والمؤن إلى ذلك الحليف ومنه. لكن إذا كانت القوى العظمى لا تستطيع أن تعبر المياه إلا بالهجوم المباشر على الأراضي الواقعة على الجانب الآخر من المياه الواقع تحت حماية جيدة من قوة عظمى منافسة، فإن تقييم القوة البحرية لا يكون ضروريا، لأن هذه الهجمات البرمائية لا تكون ممكنة، إلا نادرا. ولذلك تكون القوات البحرية التي يمكن أن تدعم ذلك الجيش غير مفيدة، وبالتالي يكون الحكم على قدراتها غير ذي صلة للاستراتيجية. وفي تلك الظروف الخاصة التي تكون العمليات البرمائية فيها ممكنة على أراضي قوة عظمى معادية يكون من الأهمية بمكان تقييم قدرة القوات البحرية على إظهار القوات المنقولة بحرا على اليابسة.

خاتمة

تشكل الجيوش، فضلا عن القوات الجوية والبحرية المساندة لها، الشكل الأساسي للقوة العسكرية في العالم الحديث. لكن المساحات المائية الواسعة تقيِّد قدرات إظهار القوة لدى الجيوش بشدة، وتقلل الأسلحة النووية إمكانية اندلاع حروب القوى العظمى بدرجة كبيرة. لكن حتى في العالم النووي، لا تزال القوة البرية هي الأهم بين أنواع القوات كافة.

تبرز هذه الخاتمة نتيجتين تتعلقان بالاستقرار بين القوى العظمى. أولا تعد القوى القارية ذات الجيوش الكبيرة الدول الأخطر في النظام الدولي. فهذه الدول هي التي بدأت معظم حروب الغزو الماضية بين القوى العظمى، وكانت في الغالب الأعم تهاجم قوى قارية أخرى، وليس قوى جزيرية تحميها المياه المحيطة بها. يتجلى هذا النمط بوضوح في التاريخ الأوروبي خلال القرنين الماضيين. ففي الفترة ١٧٩٢–١٨١٥ التي شهدت حروبا دائمة تقريبا، كانت فرنسا المعتدي الرئيس، حيث غزت أو حاولت أن تغزو قوى قارية أخرى مثل النمسا وبروسيا وروسيا. وهاجمت بروسيا النمسا في عام ١٨٦٦، ورغم أن فرنسا أعلنت الحرب على بروسيا في عام ١٨٧٠، فقد أغضب هذا القرار بروسيا التي اجتاحت فرنسا وغزتها. وبدأت ألمانيا الحرب العالمية الأولى بخطة شليفين التي كانت تستهدف إخراج فرنسا من الحرب بحيث يتمكن الألمان من التحول إلى الشرق لهزيمة روسيا. وبدأت ألمانيا الحرب العالمية الثانية بهجمات برية منفصلة على بولندا (١٩٣٩) وفرنسا (١٩٤٠) والاتحاد السوفيتي (١٩٤١). لكن أحدا من هؤلاء المعتدين لم يحاول أن يغزو المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة. وفي أثناء الحرب الباردة كان السيناريو الرئيس الذي يشغل مخططي حلف شمال الأطلنطي هو الغزو السوفيتي لأوروبا الغربية.

وعلى النقيض من ذلك، لا يرجح أن تبدأ القوى الجزيرية حروب غزو ضد قوى عظمى أخرى، لأنها تضطر لأن تعبر مساحات مائية واسعة للوصول إلى الدولة المستهدَفة. فهذه الخنادق المائية عينها التي تحمي القوى الجزيرية تعيق قدرتها على إظهار القوة. على سبيل المثال، لم تحاول المملكة المتحدة ولا الولايات المتحدة جديا أن تهدد بغزو قوة عظمى أخرى. ولم يفكر صناع السياسة البريطانيون في شن حرب على ألمانيا الفيلهلمية أو النازية، وفي أثناء الحرب الباردة لم يفكر صناع السياسة الأمريكيون جديا

في شن حرب غزو على الاتحاد السوفيتي. ورغم أن المملكة المتحدة (وفرنسا) أعلنتا الحرب على روسيا في مارس ١٨٥٤، ثم اجتاحتا شبه جزيرة القرم، فإن المملكة المتحدة لم تكن تنوي غزو روسيا، وإنما كان هذا الغزو المحدود تدخلا في حرب متواصلة بين تركيا وروسيا بغرض كبح التوسع الروسي في المنطقة المحيطة بالبحر الأسود.

قد يبدو الهجوم الياباني على الولايات المتحدة في بيرل هاربر في ديسمبر ١٩٤١ استثناء آخر لهذه القاعدة، لأن اليابان دولة جزيرية بدأت بالحرب على قوة عظمى أخرى. لكن اليابان لم تغز جزءا من الولايات المتحدة، بل ولم يفكر القادة اليابانيون بالتأكيد في ذلك. فكل ما أرادته اليابان هو أن تؤسس لنفسها إمبراطورية في غرب المحيط الهادي بالاستيلاء على الجزر المختلفة الواقعة بينها وبين هاواي. وبدأت اليابان أيضا حروبا على روسيا في عام ١٩٠٤ وعام ١٩٣٩، لكنها في الحالتين لم تجتح روسيا أو تفكر في غزوها. وعوضا عن ذلك كانت تلك الحروب بغرض السيطرة على كوريا ومنشوريا ومنغوليا.

وأخيرا، وبالنظر إلى أن المحيطات تحدّ من قدرة الجيوش على إظهار القوة وأن الأسلحة النووية تقلل إمكانية اندلاع حروب القوى العظمى بين الجيوش، فإن العالم الأقرب إلى السلام ربما يكون هو ذلك الذي تكون كل القوى العظمى فيه دولا جزيرية تمتلك ترسانات نووية قادرة على النجاة من الضربة الأولى[١٤٩].

سنختتم بذلك مناقشة القوة، علما بأن فهم ماهية القوة من شأنه أن يقدم نظرات مهمة حول سلوك الدول، خاصة الطريقة التي تزيد بها نصيبها من القوة العالمية، وذلك هو موضوع الفصل التالي.